مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العدد الثاني عشر محرم - ربيع الأول ١٤٢٦ هـ مارس - مايو ٢٠٠٥م

المملكة العربية السعودية
مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة
١٤١٨هـ ١٩٩٧م

١٢

- حوار حول مناهج تدوين السيرة النبوية
- طلع البدر علينا ... دراسة حديثية
- تقرير عن النقوش الصخرية في وادي الصويدرة
- من كنوز النباتات الطبية في المدينة المنورة
- الاتجاه العام لتوزع ملوحة المياه الجوفية بالمدينة المنورة

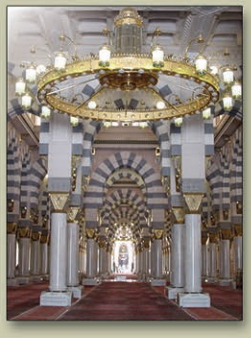

حوار حول
مناهج تدوين السيرة النبوية

د.زهير إبراهيم الخالد

دكتوراه في السيرة النبوية

ومدرس للسيرة النبوية والثقافة الإسلامية والاستشراق (سابقًا)

بجامعة طيبة في المدينة المنورة

تمهيد

معرفتي بالأخ الكريم الدكتور عبد الله الرحيلي قديمة ؛ فقد حضرت له محاضرة قيمة عن الدعوة إلى السنة في تطبيق السنة ، منهاجًا وأسلوبًا[1] ، فأعجبت بها ؛ لما اشتملت عليه من رأي حصيف في فهم السنة ، وفهم سليم لمنهج السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم ، ومن تبعهم من الأئمة ، والعلماء في فهم السنة وتطبيقها ، وما تجلى من اتزان واعتدال ووسطية في التطبيق والعمل ، وحرص على وحدة المسلمين ، والبعد عن كل ما يثير الحساسيات التي تبذر الفرقة بين المسلمين .

وقد وجدت في تلك المحاضرة الفكر الحصيف ، والاتزان والاعتدال ، وعندما قرأت البحث الذي نشره الدكتور في مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة بعنوان (مناهج تدوين السيرة النبوية)[2] ؛ وجدت فيه غير ما وجدته في تلك المحاضرة ، وبخاصة ما يتعلق بمنهج المحدثين في موضوع الحديث الضعيف ، كما وجدت قضايا أخرى في مناهج تدوين السيرة التي عرضها ، لذلك رأيت أن أكتب هذا البحث ؛ لأحاور الباحث الكريم فيما ذهب إليه .

ولقد عجبت من عدم أخذه بالرأي الراجح في منهج المحدثين ، وأخذه بدلاً منه برأي شاذ ، يُعرض عن الأخذ بالحديث الضعيف مطلقًا ، ثم قوله عنه : إنه هو المنهج الصحيح والراجح من منهج المحدثين .

---

(١) طبعت المحاضرة المشار إليها في كتاب مستقل بالعنوان نفسه بعد زيادات مفيدة فيه .

(٢) مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، العدد الحادي عشر ، شوال – ذو الحجة ١٤٢٥هـ ، ص ٩–٤٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ثم استعراضه بناء عليه بعض المناهج في تلقي السيرة والشمائل النبوية وتدوينها .

ولولا أن الأخ الدكتور عبد الله قدم موضوعه هذا من قبيل التنظير لتلقي وكتابة السيرة والشمائل النبوية ؛ لما كلفت نفسي بكتابة هذا البحث .

وأود أن أقدم بين يدي البحث خلاصة موجزة للمنهج الصحيح والراجح من منهج المحدثين ، الذي أخذ به أئمة السلف من أئمة الاجتهاد والحديث ، وجماهير العلماء ؛ سلفًا وخلفًا ، والذي خالفه الأخ د. عبد الله فيما أعتقد .

ذهب أئمة الاجتهاد والحديث الشريف من السلف الصالح وجماهير العلماء سلفًا وخلفًا إلى الأخذ بالحديث الضعيف إذا توفرت فيه الشروط التالية :

١ - أن يكون الضعف غير شديد .

٢ - أن يندرج تحت أصل معمول به في الشريعة الإسلامية ، وألا يوجد في المسألة غيره .

٣ - ألا يعتقد عند العمل ثبوته ، بل يعتقد الاحتياط[١] .

ومن الأئمة المجتهدين الذين ذهبوا للعمل بالحديث الضعيف بهذه الشروط ؛ الأئمة :أبو حنيفة ، ومالك ، وأحمد رحمهم الله تعالى ، وكذلك الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ؛ ذلك أن الإمام الشافعي يعمل بالحديث المرسل إذا لم يوجد في المسألة غيره ، في الوقت الذي يرى فيه الحديث المرسل ضعيفًا ، وهو مذهب ابن حزم ، ومذهب أبي داود ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن المبارك ، وابن مهدي ، وغيرهم من أئمة السلف في الحديث الشريف ، رحمهم الله تعالى[٢] .

هذا ؛ ولم ينقل عن غيرهم قول لهم يخالف ذلك .

وأقول : لم ينقل عن غيرهم قول لهم ، ولم أقل : لم ينقل عن غيرهم ؛ لأنه ربما وجد نقل غير صحيح عن غيرهم ، دون أن ينقل قول لهم في ذلك ، وفرق بين الأمرين ؛ فلينتبه إليه[٣] .

---

(١) انظر : الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير الدمشقي ، تأليف أحمد شاكر ص ٩٠-٩١ ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، سنة ١٣٢٧هـ ، وأثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء ، للشيخ محمد محمد عوامة ، حفظه الله تعالى ص ٢٦-٢٧ ، ط٣ ، ١٤١٠هـ .

(٢) أثر الحديث الشريف ، ص ٢٦-٢٧ .

(٣) أفادني به فضيلة الشيخ محمد محمد عوامة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بل إن الإمام أحمد رحمه الله تعالى يقول : « ضعيف الحديث أحب إلينا من الرأي »[١] .

قال ابن حزم رحمه الله تعالى : « وبهذا نقول »[٢] .

يقول عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى : « إذا روينا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا في الرجال ، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب سهلنا في الأسانيد ، وتسامحنا في الرجال »[٣] ..

ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : « ويجوز رواية ما عدا الموضوع في باب الترغيب والترهيب ، والقصص والمواعظ ونحو ذلك ، إلا في صفات الله ﷻ ، وفي باب الحلال والحرام »[٤] اهـ.

هذه أقوال الأئمة والعلماء في الصحيح والراجح من مذهبهم .

وهنا ألفت الانتباه إلى الملاحظات الأربع التالية :

الأولى : الحديث الضعيف غير الحديث الموضوع أو المتروك -كما هو معروف - إذ بينهما فرق كبير .

الثانية : الحديث الضعيف سندًا ، وبالشروط التي تقدم ذكرها ؛ يعني أننا لا نستطيع أن نجزم بأنه صدر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا اللفظ ؛ لضعف ضبط بعض الرواة ، أو للانقطاع في السند ، أو ما إلى ذلك من أسباب ضعف سند الرواية ، ومن ثم فالحكم على الحديث بالضعف في هذه الحالة هو من قبيل الاحتياط[٥] ؛ إذ لا يستبعد أن يكون الراوي الذي حُكم على روايته بالضعف ؛ لضعف ضبطه مثلاً ، أن يكون في هذه الرواية تام الضبط ، لكن لما لم يثبت لأئمة الحديث ذلك ؛ حكموا على روايته بالضعف ، من قبيل الاحتياط ، وأعرضوا عن الأخذ بها في العقائد والحلال والحرام ، ولكنهم أخذوا بها في غير ذلك .

---

(١) أثر الحديث الشريف ، ص ٢٦-٢٧ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) الباعث الحثيث ، ص ٩٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٥) أفادني به شيخنا الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الثالثة : يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : « وقد نبه الشيخ أبو عمر - أي ابن الصلاح - على أنه لا يلزم من الحكم بضعف سند الحديث المعين الحكم بضعفه في نفسه ؛ إذ قد يكون له إسناد آخر ، إلا أن ينص إمام على أنه لا يروى إلا من هذا الوجه »[١] .

وعقَّب أحمد شاكر رحمه الله تعالى في الحاشية على قول ابن الصلاح فقال : « من وجد حديثًا بإسناد ضعيف ؛ فالأحوط أن يقول : إنه ضعيف بهذا الإسناد ، ولا يحكم بضعف المتن مطلقًا من غير تقييد ، بمجرد ضعف ذلك الإسناد ؛ فقد يكون الحديث واردًا بإسناد آخر صحيح ، إلا أن يجد الحكم بضعف المتن منقولاً عن إمام من الحفاظ المطلعين على الطرق »[٢] اهـ.

الرابعة : يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « إن الأئمة الذين كانوا قبل جمع هذه الدواوين ، كانوا أعلم بالسنة من المتأخرين بكثير ؛ لأن كثيرًا مما بلغهم ، وصح عنهم ، قد لا يبلغنا إلا عن مجهول ، أو إسناد منقطع ، أو لا يبلغنا بالكلية »[٣] اهـ.

ويضيف الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه (السيرة النبوية الصحيحة) كلامًا نفيسًا ، فيقول ص ٥٣ : « أما كتب السيرة المختصة ؛ فإنها تلي من حيث الدقة القرآن الكريم والحديث الشريف ، ومما يعطيها قيمة علمية كبيرة ؛ أن أوائلها كتبت في وقت مبكر جدًا ، وعلى وجه التحديد في جيل التابعين ؛ حيث كان الصحابة موجودين ، فلم ينكروا على كُتَّاب السيرة ، مما يدل على إقرارهم لما كتبوه .

والصحابة على علم دقيق وواسع بالسيرة ؛ لأنهم عاشوا أحداثها ، وشاركوا فيها ، وكانت محبتهم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وتعلقهم به ، ورغبتهم في اتباعه ، وأخذهم بسنته في الأحكام سببًا في ذيوع أخبار السيرة ، ومذاكرتهم فيها ، وحفظهم لها ؛ فهي التطبيق العملي لتعاليم الإسلام.

---

(١) الباعث الحثيث ، ص ٩٠ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) الحديث وأثره ، ص ١٤٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد اشتهر عدد من الصحابة باهتمامهم الكبير بموضوع السيرة ؛ منهم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، والبراء بن عازب رضي الله تعالى عنهم جميعًا .

وكذلك فإن التبكير في كتابة السيرة قلل إلى حد كبير من احتمال تعرضها للتحريف أو المبالغة ، والتهويل أو الضياع » اهـ.

ويقول في ص ٦٥ من كتابه المذكور ، بعد أن يذكر مجموعة من الأئمة المؤلفين في السيرة : « هؤلاء الرواد الأوائل في كتابة السيرة ، ويتضح من توثيق نقاد الحديث لأكثرهم ما تميزوا به من العدالة والضبط ، وهما شرطان عند العلماء لتوثيق الرواية ، فلئن كانوا وثقوا عن المحدثين ، رغم دقة شروطهم في التوثيق ، ورغم نظرتهم لهم على أنهم مُحَدِّثون ، مادتهم الأحاديث ، وليسوا إخباريين ، مادتهم الأخبار ، والنقاد يتشددون في مادة الحديث كثيرًا ، ويتساهلون في قبول الأخبار ؛ فإن هذا التوثيق يعطي كتاباتهم في السيرة قيمة علمية كبيرة .

لقد حفظ الله تعالى سيرة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من الضياع والتحريف ، والمبالغة والتهويل ؛ بأن هيأ لها جهابذة المحدِّثين ليعتنوا بها ، ويدونوا أصولها الأولى ، قبل أن تتناولها أقلام المؤرخين والقصاصين ، وهذه ميزة لمصادر السيرة ، لم تتوافر لغيرها من كتب التاريخ والأخبار . ميزة لكون المحدثين ثقات مأمونين في الرواية ، وميزة لكونهم علماء ؛ لهم مناهج واضحة في نقد الروايات سندًا ومتنًا ، ولهم أسلوب يتسم بالجدية ، والبعد عن الحشو والمبالغة » .

هذا وقد أشار الدكتور عبد الله الرحيلي إلى مثل هذه الملاحظة في نقده للاتجاه الأول .

وأود أن أضيف إلى ما قاله الدكتور أكرم : أن أولئك الرواد الأعلام في السيرة النبوية ؛ كانوا يتساهلون بذكر سند الروايات ، لا سيما الفترة المكية ، إلا إذا كانت تتعلق بالعقيدة أو التشريع .

ويشير الدكتور أكرم إلى أن معظم مصنفات أولئك الرواد الأوائل فقدت ، لكن من جاء بعدهم من المؤلفين في السيرة ؛ كابن إسحاق ، وابن سعد ،

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وأمثالهما -رحمهم الله تعالى - نقلوا الكثير مما تضمنته من الروايات الصحيحة في السيرة النبوية ، مع إسنادها إلى من نقولها عنهم .

ويقول الدكتور مهدي رزق الله أحمد في كتابه (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية) ص١٢ ، ط١ كلامًا جيدًا ، يتفق مع كلام الدكتور أكرم ، فيقول : « ... ورأيت ضرورة أهمية إثبات كثير من مرويات أهل السير والمغازي إلى جانب الروايات الصحيحة ... ليتبين للقارئ أن كثيرًا من مرويات أهل المغازي والسير لها أصل ، وأن روايات أهل الحديث الصحيحة تؤكدها ، وتجعل لها قيمة علمية معتبرة » اهـ.

هذا ؛ولا بد أن أشير إلى أمر لا بد من أخذه بعين الاعتبار ، وهو ما يتصل بموضوع الاختصاص ، وان الراوي الذي يروي من علم هو مختص به ، لا يصح إهدار روايته ، خلافًا لروايته في غير ما هو مختص به ؛ ذلك أنه في الوقت الذي تكون فيه روايته في غير ما هو مختص به ضعيفة أو مردودة ؛ لضعف ضبطه ، أو لتساهله ولا مبالاته ، أو كذبه ؛ تكون روايته فيما هو مختص فيه صحيحة أو راجحة ؛ لاهتمامه بها ، والتزامه الصدق والموضوعية فيما يرويه مما هو مختص به ؛ لأن عدم الصحة فيما يرويه فيما هو مختص فيه ، يترتب عليه الطعن فيه ، وبعلمه الذي هو مختص به ، ولعله حريص على ألا يطعن بعلمه بما هو مختص له .

ولعله من هذا القبيل اعتبر بعض الرواة عمدة فيما يروونه فيما هم مختصون به ، وقبلت رواياتهم فيه واعتمدت ، وفي الوقت ذاته ، اعتبروا ضعفاء في الحديث الشريف ، أو متروكين ؛ كابن الكلبي مثلاً ؛ فهو عمدة في الأنساب ، ويرجع إليه فيه ، بينما هو متروك في الحديث الشريف .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى :«وابن الكلبي يرجع إليه في النسب»[١] .

وقال ابن الأثير رحمه الله تعالى :«وأظن الحق مع قول الكلبي ؛لعلمه بالنسب»[٢] .

ولذا ؛ فإن تطبيق القواعد الحديثية على جميع الرواة ، دون النظر إلى ما يروونه ؛ هل هو من الحديث الشريف ، أو فيما هم مختصون به ، والحكم

(١) الإصابة ، لابن حجر العسقلاني ١٦٩/١ .

(٢) أسد الغابة ، لابن الأثير ٢٤٠/١ .

عليهم وعلى رواياتهم فيما هم مختصون به بالضعف ؛ لكونهم ضعفاء ، أو متروكين في الحديث الشريف ، أمر غير سديد ، بل وغير صحيح ، ومخالف لمنهج الأئمة الراسخين في العلم ، كما أشارت إليه كلمة الإمامين ابن حجر وابن الأثير رحمهما الله تعالى عن ابن الكلبي .

ويقول الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى في كلمة له عن الطبقات الكبرى ومؤلفها ابن سعد رحمه الله تعالى كلامًا يلتقي مع ما تقدم ؛ إذ يقول : « ومن المعلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، كانوا يحدثون التابعين بما عندهم من الحديث ، ويفقهونهم في دين الله ، وينبئونهم بما يعلمونه من الأنباء في السير والمغازي وسائر الشؤون ، لكن لم يكن تصنيف الكتب في شتى المواضيع معهودًا في زمنهم ، فكانوا يكتفون بسماع العلم وإسماعه ، وما كان يكتب العلم من يكتبه إلا لنفسه خاصة ؛ لمجرد ألا ينسى ألفاظ الحديث - مثلاً - عند الحديث ، لا ليكون ما كتبه كتابًا يستنسخ ويذاع على الجمهور .

وهكذا كان الأمر ، إلى أن أتى عهد التدوين بعد انقضاء المئة الأولى من الهجرة النبوية ، فبدأ أهل العلم - على اختلاف مسالكهم - يكتبون في علوم الحديث ، والسير ، والتفسير ، والفقه ؛ جوامع ، وآثارًا ، وموطآت ، ومصنفات تزداد بها مؤلفاتهم على تعاقب السنين ، وكانوا يكتفون من معرفة أحوال النقلة الرواة بما يتدارسونه بينهم ، ولم يكن ليخطر على بال أهل العلم - إذ ذاك - تسجيل أحوال الصحابة والتابعين ﷺ ؛ حيث كانوا على علم من سيرهم وأنبائهم ؛ لكثرة ما كانوا يسمعونه من العارفين بأحوالهم بالمخالطة والمعاشرة ، ولقرب زمنهم من زمن هؤلاء جد القرب ، فالفقيه - مثلاً - إذا روى في ذلك العهد حديثًا بسنده - وبينه وبين الصحابي رجل أو رجلان فقط - يرويه وهو يعلم حال شيخه الذي سمع الحديث منه ، وحال شيخ شيخه بالسماع من شيخه ، فيكون على بينة من ثقة الرواة وضعفهم ، وهكذا باقي الفقهاء ، وسائر العلماء في ذلك العهد »[1] اهـ .

إن الرسوخ في علم الحديث ، وسعة الأفق ، والمرونة فيه ، يقتضي عند الحكم على الرواية في السيرة النبوية ، أو التاريخ الإسلامي العام ، أن تؤخذ بعين الاعتبار

(١) ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

هذه الملاحظات كلها ، وإن تجاهل ذلك عند الحكم على الرواية بالصحة أو بالضعف ، ليس من الرسوخ في العلم وسعة الأفق والمرونة في علم الحديث .

لكن الأكثر بعدًا عن الرسوخ في العلم والمرونة في علم الحديث ؛ هو الإعراض عن كل رواية في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي حكم عليها بالضعف ، دون مراعاة لشيء من الملاحظات المذكورة ؛ لأن ذلك سيؤدي إلى تجاوز الكثير من الأحداث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي العام ، وتركها بلا تغطية ؛ لتشكل فجوات في سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي تاريخ المسلمين ؛ ليأتي من شاء ويملأها بالخرافات والروايات الموضوعة .

وإن عملاً مثل هذا هو عندنا مسخ للسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي العام ، وليس تحقيقًا لهما ، وهو مخالف للصحيح الراجح من منهج المحدثين ، الذي عليه أئمة الاجتهاد والحديث الشريف من السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم ، وجماهير العلماء سلفًا وخلفًا - كما أشرت - .

وبعد هذا التقديم أبدأ بمحاورة الدكتور عبد الله ، لما ذكره من الآراء والاتجاهات في تلقي وكتابة السيرة والشمائل النبوية .

الاتجاه الأول : وهو : جمع كل ما يروى في السيرة والشمائل ، دون تمييز بين الثابت وغير الثابت :

لقد جاء عرض الدكتور عبد الله لهذا الاتجاه - فيما يبدو لي - جيدًا وموضوعيًا ؛ فقد أشار إلى ما يمتاز به هذا الاتجاه من الحرص على ذكر سند الرواية ، بحيث يساعد على تحقيق الروايات ، وتمييز الصحيح من غيره ، وفق منهج المحدثين ، كما أشار إلى تميز مؤلفات أئمة السيرة والشمائل وعلمائها الأوائل عن المتأخرين منهم ؛ لقرب الأوائل من عهد الرسالة ، وغلبة حال الثقة عليهم ، وقلة الضعف وندرته فيهم ، وقصر السند الذي يقلل من احتمالات الضعف في الرواية .

كما جاء نقده لهذا الاتجاه - فيما يبدو لي - جيدًا وموضوعيًا ؛ حيث أشار إلى خلوه من مبدأ نقد الروايات ، الذي لا يغني عنه إيراد سند الرواية فقط .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الاتجاه الثاني :

وهو : الدعوة إلى الأخذ بالصحيح وفق منهج المحدثين :

ويرجح الدكتور عبد الله هذا الاتجاه ، ويؤكد عليه في خاتمة بحثه ، فيقول في ص ٤٣-٤٤ من المجلة : « لعله اتضح من خلال ذلك ، ومن خلال نتيجة عرض كل اتجاه المنهج المطلوب لتلقي السيرة والشمائل النبوية ، وأنه منهج المحدثين بيقين ، وأن أدلته هي الأدلة الراجحة ، والمحجة الواضحة ، وأنه هو منهج الطمأنينة والتثبت ، وهو الذي عليه نور الوحي الإلهي ، وشاهد العقل ، وما عداه من المناهج ليس له هذه الصفات ، وإن اشتمل على بعض ذلك » .

هذا ؛ ولم ينس الدكتور عبد الله أن يؤكد على هذا المنهج في نهاية نقده للمنهج الثالث ؛ الذي يدعو إلى الأخذ بمنهج المحدثين ، مع ضرورة المرونة في تطبيق قواعد المحدثين في نطاق التاريخ الإسلامي العام - كما سيأتي ذكره بعد قليل - ، فيقول في ص ٣٢ من المجلة : « إن منهج كتابة السيرة النبوية والشمائل النبوية ، ومنهج تلقيهما يجب أن يكونا مبنيين على منهج المحدثين في نقد الروايات » اهـ.

ثم يضع لهذا المنهج الذي يقترحه مستلزمات ، بعضها واضح معروف ، وبعضها غير واضح المعالم ، فيقول : « وهذا يستلزم تخصص الباحث أو الكاتب في معرفة منهج المحدثين ، وتخصص من تؤخذ عنه السيرة النبوية في ذلك المنهج ، وهذا يستلزم أيضًا معرفة المتخصص بمنهج المحدثين معرفة محررة ، يميز فيها بين الآراء المتسقة مع المنهج ، والآراء الشاذة ، والقواعد المعتمدة في منهجهم ، والقواعد المعلومة الفساد عند جمهور المحدثين .

ويستلزم كذلك أن يكتمل له الإلمام النظري بالمنهج ، والإلمام العملي التطبيقي ، المتسقان مع أصول المنهج ، لا مع مجرد الأقوال والآراء الفردية » اهـ.

قلت : إن معرفة الباحث في السيرة والشمائل النبوية ، وكذلك من تؤخذ عنه السيرة والشمائل النبوية بمنهج المحدثين معرفة تمكنه من تمييز الروايات الصحيحة من غيرها ، أمر لا جدال فيه ، لكن ذلك لا يكفي ، بل لا بد من إضافة شروط أخرى يجب أن تتوفر في الباحث في السيرة والشمائل النبوية ، وهي :

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تخصصه بالسيرة والشمائل النبوية ، وتمكنه منها تمكنًا يجعله محيطًا بأحداثها ، أو قريبًا من الإحاطة بها ، مستحضرًا لها في ذهنه ، بحيث لا يغيب عنه منها إلا النادر ، ومحيطًا بجوانب أو جزئيات الحادثة الواحدة ؛ لضمها إلى بعضها البعض ، ووضع كل جزئية في مكانها المناسب من الحادثة ، حتى يقدم صورة متكاملة عن الحادثة ، وحتى يتمكن من ربط الحادثة بما قبلها وما بعدها من حوادث السيرة ، لا سيما حين يكون ما قبلها سببًا لها ، أو ذا أثر فيها ، أو حين تكون هي سببًا لما بعدها ، أو ذات أثر فيها ، ولو كان بينهما فاصل زمني غير قصير .

وهذا أمر لا أظن المتخصص في الحديث الشريف ، غير المحيط بأحداث السيرة النبوية يستطيعه ، ولذا وجدنا اليوم من يكتب في السيرة النبوية من المتخصصين بالحديث الشريف ، أو من له عناية به ؛ ينظر إلى أحداث السيرة النبوية ، بل وإلى بعض أجزاء الواقعة الواحدة على أنها وقائع متعددة ؛ لورودها في روايات مستقلة ، وكثيرًا ما يعمد هؤلاء إلى روايتها على أنها روايات متعددة للحادثة الواحدة ، ويترك القارئ في حيرة بين الروايات المتعددة للحادثة الواحدة ، لا يدرك الصحيح منها من غير الصحيح .

وأحيانًا يعمد بعضهم إلى الترجيح بين ما يورده من الروايات - على سبيل التحقيق في صحتها على طريقة المحدثين - فيعتمد ما يراه صحيحًا ، أو أصح من الروايات ، ويبعد الأخرى ، دون أن يدرك أن ما وردت به بعض الروايات قد يكمل بعضه بعضًا ، وإذا ضم بعضها إلى بعض ، ووضعت كل جزئية في مكانها المناسب ، أعطت صورة متكاملة عن الحادثة أو الواقعة التاريخية أو في السيرة .

ومن أمثلة ذلك ؛ الحادثة التالية ، وهي مراجعة زعماء الكفر في قريش لأبي طالب في المرة الثانية ، واحتجاجهم عليه بأنه لم يمنع ابن أخيه ؛ سيدنا محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم من الاستمرار في الدعوة ، كما طلبوا منه أول مرة ، وهددوه بالحرب إن لم يمنعه أو يسلمه إليهم ليقتلوه ؛ فعز على أبي طالب أن يحاربه قومه ، كما عز عليه أن يسلمهم ابن أخيه صلى الله عليه وآله وسلم ليقتلوه ، فأرسل إلى ابن أخيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فجاءه عليه الصلاة والسلام .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ونحن هنا في هذه الواقعة أمام روايتين :

الأولى : وهي الرواية المشهورة ، التي يرويها ابن إسحاق رحمه الله تعالى ، وفيها حديث : « يا عم ؛ والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته »[١] .

الثانية :وقد صححها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى في كتابه (صحيح السيرة النبوية) ، ويقول : « وروى البخاري في التاريخ ، والبيهقي عن الحاكم ، من حديث عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وفيها : فحلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببصره إلى السماء ، فقال : « فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منها بشعلة » وأشار إلى الشمس » .

وقال في الحاشية : « إسناده حسن » ، ثم قال : « أما حديث : « يا عم ؛ لو وضعوا الشمس في يميني ... » لم أورده لضعفه ، على شهرته »[٢] اهـ.

وقد سبق للشيخ ناصر أن أشار إلى هذا في تعليقاته على كتاب (فقه السيرة) للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى[٣] .

وقد أخذ بقول الشيخ ناصر بعض من كتب في السيرة ، وقال :إنه جمع (السيرة الصحيحة) في كتابه ، فاعتمد الرواية الثانية ، وأبعد الأولى ، على الرغم من كونها مشهورة ، فعل ذلك كل من : د. أكرم ضياء العمري في كتابه (السيرة الصحيحة) ، وإبراهيم العلي في كتابه (صحيح السيرة النبوية) ، و د. محمد الطرهوني في كتابه (صحيح السيرة النبوية المسماة بالسيرة الذهبية)[٤] .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ٢٦٦/١ ، طبع مؤسسة علوم القرآن .

(٢) صحيح السيرة ، للشيخ ناصر ، ط١ ، ص ١٤٣ .

(٣) فقه السيرة ، للشيخ الغزالي ، ط٢ ، سنة ١٣٨٥هـ ، ص ١١٤ –١١٥ .

(٤) أشار الدكتور أكرم إلى سبق الشيخ ناصر إلى تحسين الرواية الثانية ، ولم يشر إبراهيم العلي لذلك . أما الطرهوني في كتابه صحيح السيرة ٣٤٩/٢ ، فقرة ٤٤٤ ط١ ، سنة ١٤١٤هـ ؛ فقد أشار إلى ذلك ، لكن بعبارة جاءت وكأن الشيخ ناصر تابعه أو وافقه على تحسينها ، فقال : « وقد حسن حديثنا الألباني ، وعزاه لأبي جعفر البختري ... ولابن عساكر » .

ومن لا يعرف الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ولا يعرف د. محمد الطرهوني ، يفهم من عبارته هذه أنه أسبق إلى تحسينها من الشيخ ناصر – كما تفيده العبارة – ، وأن الشيخ ناصر رحمه الله تعالى تابعه أو وافقه ، علمًا بأن الشيخ ناصر سبق الطرهوني بالحكم على الحديث بأكثر من ثلاثين سنة ، وأن تعليقات الشيخ ناصر المشار إليها على كتاب (فقه السيرة للغزالي) كانت على طبعة سنة ١٣٨٥هـ للكتاب ، أي منذ نحو أربعين سنة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وإذن ؛ فهؤلاء الذي اعتمدوا طريقة المحدثين في التحقيق ، بدءًا من شيخنا الشيخ ناصر الدين الألباني ؛ اعتمدوا الرواية الثانية ؛ لكونها أصح حديثيًا ، وأبعدوا الثانية ؛ لأنها لم تصح عندهم حديثيًا ، علمًا بأن كلاً من الروايتين هي جزء من واقعة تاريخية واحدة ، وهي احتجاج زعماء قريش على أبي طالب ؛ بأنه لم يمنع ابن أخيه صلى الله عليه وآله وسلم من الاستمرار بالدعوة ، وتهديدهم له بالحرب ، فاستجاب لهم ، وأرسل ولده عقيلاً رضي الله تعالى عنه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعوه إليه ، فجاءه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ووجد عنده رؤوس الكفر المشار إليه ، فخاطبه أبو طالب قائلاً : « إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم ، فانته عن أذاهم ، فحلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببصره إلى السماء ، فقال : « ترون هذه الشمس ؟ » ، قالوا : نعم . قال : « ما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منها بشعلة » ، وكأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ أراد أن يبين لهم أن قيامه بالدعوة إلى الإسلام ليس من قبيل النافلة ، وإنما هو فرض عليه من قبل الله ﷻ ، ومن ثم فهو عاجز عن التخلي عن الدعوة ؛ عجزهم عن أن يمد أحدهم يده إلى الشمس ويأتي منها بشعلة ، ومن ثم فيستحيل أن يتخلى عن الدعوة .

فقال أبو طالب : والله ما كذب ابن آخي قط ، فارجعوا .

فقاموا وهم مغضبون ، وجعلوا يتهددون أبا طالب ويتوعدونه ؛ بأنهم سيحاربونه وابن أخيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد أثر تهديدهم في أبي طالب ، وعزَّ عليه عداوة قومه له ، فتوجه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد خروجهم ، وقال له : فأبق عليَّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن عمه أبا طالب قد ضعف عن نصرته ، فأراد أن يبين له تصميمه على الاستمرار في الدعوة ، ولو تخلى عنه عمه ، ولو تصدى له قومه ، بما يملكون ، وما لا يملكون من قوة ، فقال : « يا عم ؛ والله لو وضعوا الشمس في يميني ... الخ » ، ثم استعبر صلى الله عليه وآله وسلم ... الخ .

وبهذا الجمع أو التوفيق بين الروايتين نتفادى إلغاء حادثة مشهورة ، ونعطي صورة أوضح للواقعة .

وأما إبعادها ، وإبعاد الكثير من الروايات التاريخية ، التي يراها بعض المشتغلين بالحديث الشريف ، الذين لا يأخذون بالروايات الضعيفة سندًا - فيما عدا الحلال والحرام - ولا يأخذون بعين الاعتبار ما تقدم من الملاحظات التي ذكرتها من قبل ؛ سيؤدي إلى ترك فجوات في السيرة النبوية وفي التاريخ الإسلامي العام بلا تغطية ، كما سيأتي مناقشة ذلك إن شاء الله تعالى في التعقيب على الاتجاه الثالث .

أضف إلى هذا ؛ أن عدم تمكن المتخصصين في الحديث الشريف من الإحاطة بوقائع السيرة النبوية واستحضارها في أذهانهم ؛ قد يوقعهم في الغموض أو الاضطراب ، أو حتى التناقض في عرض وقائع السيرة النبوية ، وتحديد تاريخ بعض الأحداث الهامة فيها ؛ كبدء نزول القرآن الكريم بنزول مطلع سورة العلق ، وقد فصلت هذا في بعض أحاديثي في التلفاز وبعض القنوات الفضائية ، وكذلك في كتابي (في رحاب السيرة النبوية) ، والذي أرجو الله تعالى أن يعينني على إتمامه ، وأن يرى النور ، وخلاصة ذلك كما يلي :

١ - لقد بدأ الوحي لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالرؤيا الصادقة على رأس الأربعين من عمره المبارك صلى الله عليه وسلم ، كما هو في الصحيحين[١] ، وذلك يوم الاثنين ، في الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، ويوافق اليوم الأول من عام (٤١) من عمر النبي المبارك صلى الله عليه وآله وسلم ، بناء على الرواية المشهورة والراجحة من ميلاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل .

٢ - استمر وحي الرؤيا الصادقة ، واقتصر عليها حتى شهر رمضان المبارك[٢] ، حيث نزل جبريل عليه الصلاة والسلام بصدر سورة العلق على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في غار حراء ، يقظة يوم الاثنين في شهر رمضان من عام (٤١) من عمر النبي المبارك عليه الصلاة والسلام ، بعد أن نزل بها عليه في شهر رمضان نفسه ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم نائم في غار حراء .

---

(١) في صحيح البخاري [كتاب المناقب (ح ٣٣٥٥ بعثه الله على رأس الأربعين)] ، وفي صحيح مسلم [كتاب الفضائل (ب ٣١ ، ح ١١٣ بعثه الله على رأس أربعين سنة) .

(٢) لا يعني هذا أن وحي الرؤيا الصادقة قد انقطع بعد نزول جبريل عليه الصلاة والسلام ، بل استمر حتى آخر حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

هذا ؛ ومراجعة عجلى للكتب التي سماها أصحابها بالسيرة الصحيحة ، أو صحيح السيرة تكشف عن الغموض الذي اكتنف فيها تحديد تاريخ بدء الوحي وبدء نزول القرآن الكريم ، والخلط بينهما ، واعتبارهما شيئًا واحدًا ، مع اختلافهما موضوعًا وزمانًا ، بل ووقع التناقض في عرضهما في بعض هذه الكتب ؛ مما يشير إلى عدم وضوح هذه القضية لدى أصحابها .

وسأبدأ بكتاب شيخنا الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى ، الذي سماه (صحيح السيرة النبوية) :

فهو يقول في ص ٨٤[1] ، تحت عنوان : (باب كيفية بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وذِكر أول شيء أنزل عليه من القرآن العظيم) ما يلي :

« كان ذلك وله صلى الله عليه وسلم من العمر أربعون سنة » اهـ.

ثم يقول في ص ٨٩ : « والمشهور أنه بعث عليه الصلاة والسلام في شهر رمضان ، كما نص على ذلك عبيد بن عمير ، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهما ، واستدل ابن إسحاق على ذلك بقوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ﴾[2] اهـ.

قلت : قول الشيخ ناصر : « كان ذلك وله صلى الله عليه وآله وسلم أربعون سنة » غير دقيق ، ولم يوضح متى كان ذلك في ذلك العام . هل كان في بدايته ، أو وسطه ، أو نهايته ؟ لأن قوله : وله أربعون سنة ، يشمل العام كله ؛ أوله ، ووسطه ، وآخره . لكن قوله : « والمشهور أنه بعث عليه الصلاة والسلام في شهر رمضان ، كما نص على ذلك عبيد بن عمير ، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهما ... الخ » يشير إلى أنه يرى أن بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت في شهر رمضان ، وهذا يعني أن البعثة حصلت وعمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أربعون سنة وستة أشهر وأيام ، وهذا خلاف ما ورد في الصحيحين من أن البعثة كانت على رأس الأربعين من عمر النبي المبارك صلى الله عليه وآله وسلم ، كما تقدم آنفًا ، أي كانت في أول يوم من عام واحد وأربعين من عمره المبارك

---

(١) الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢١هـ

(٢) سورة البقرة ، آية ١٨٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عليه الصلاة والسلام ، وليس في شهر رمضان ، كما ذهب إليه الشيخ ناصر رحمه الله تعالى ؛ متابعة منه لعبيد بن عمير رحمه الله تعالى ، أو كما فهم الشيخ منها .

أما قول الشيخ : « كما نص عليه عبيد بن عمير ، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهما » ، ففيه مقال ؛ إذ يقال فيه : إن حديث عبيد يحتمل أن يكون قد أراد به أن البعثة كانت في شهر رمضان ، فيكون ذلك نصًا منه عليه ، ويحتمل أن يكون أراد غير ذلك ، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى عقب حديثه .

أما ابن إسحاق ؛ فالذي نص عليه هو : أن الذي كان في شهر رمضان هو بدء نزول القرآن الكريم ، وليس بدء الوحي ، وهذا نص ما قاله كل منهما :

١ - ما قاله عبيد بن عمير :

قال ابن إسحاق : وحدثني وهب بن كيسان - مولى آل الزبير - قال : سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي : حدثنا يا عبيد ؛ كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من النبوة ، حين جاءه جبريل عليه السلام ؟

قال عبيد : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم يجاور في حراء من كل سنة شهرًا ، ... حتى قال : حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراده من كرامته ، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ؛ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حراء ... حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد بها ؛ جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « فجاءني جبريل وأنا نائم ، بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ ... » إلى أن يقول : فقرأتها ، ثم انتهى ، فانصرف عني ، وهببت من نومي ، فكأنما كتبت في قلبي كتابًا ... » الحديث[1] .

قلت : إن قول عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما لعبيد : حدثنا يا عبيد ؛ كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من النبوة حين

(١) ابن هشام ٢٣٦/١ - ٢٣٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

جاء جبريل عليه السلام ، وإجابة عبيد له تحتمل أن يكون عبيد أراد بذلك بدء النبوة ، لكن قوله :« حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراده من كرامته ، من السنة التي بعثه الله تعالى بها ... الخ » يحتمل أن يكون قوله : « من السنة التي بعثه الله تعالى بها » أراد أن البعثة كانت قبل ذلك في ربيع الأول من السنة ذاتها ، أو أن البعثة حصلت بمجيء جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام في حديثه هذا . والله تعالى أعلم .

٢ - قول ابن إسحاق رحمه الله تعالى :

قال ابن إسحاق : « فابتدئ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتنزيل في شهر رمضان ، يقول الله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ... ﴾ الآيات[١] .

فقوله :« فابتدئ بالتنزيل » صريح بنزول القرآن الكريم ، وليس بدء النبوة ؛ خلافًا لما فهمه الشيخ ناصر رحمه الله تعالى .

ثم هنا ملاحظتان على متابعة الشيخ ناصر لعبيد بن عمير رحمهما الله تعالى :

الأولى : لم يفرق الشيخ بين بدء الوحي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي كان في الثاني عشر من ربيع الأول ، أي في اليوم الأول من عام (٤١) من عمر النبي المبارك صلى الله عليه وآله وسلم ، كما نصت عليه رواية الشيخين ، وبين بدء نزول القرآن الكريم ، الذي كان في شهر رمضان المبارك ، علمًا بأن رواية عبيد تتحدث عن نزول صدر سورة العلق في المنام ، ولم يعتبر العلماء ذلك بدءًا لنزول القرآن الكريم ؛ لنزولها في المنام ، وإنما اعتبروا نزولها في اليقظة ، كما هو حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها في الصحيحين وغيرهما ؛ لأن القرآن الكريم نزل كله في اليقظة ، إلا هذه الآية ؛ فإنها نزلت مرتين ؛ لحكمة يريدها الله تعالى ، كما تفصله الملاحظة الثانية التالية .

الثانية : إن ما تفيده رواية الصحيحين[٢] : أن بدء نزول القرآن الكريم كان بمجيء جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام بصدر سورة العلق في اليقظة

---

(١) ابن هشام ٢٣٩/١-٢٤٠ .

(٢) صحيح البخاري ٤/١ ، ك ٩ ، ب ١ ، ح ٣ ، وصحيح مسلم ١٤٠/١ ، ك ٩ ، ب ٧٣ ، ح ٢٥٢ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وليس في المنام ؛ خلافًا لرواية عبيد بن عمير ، التي أخذ بها الشيخ ناصر رحمه الله تعالى ، وذلك أن جبريل عليه الصلاة والسلام جاء بصدر سورة العلق مرتين ؛ الأولى في المنام ، ليلاً ؛ حيث كان النبي عليه الصلاة والسلام نائمًا في غار حراء ، كما صرحت به رواية عبيد بن عمير ؛ كتمهيد وتوطئة لمجيئه في اليقظة ، وتلطفًا من الله ﷻ بنبيه عليه الصلاة والسلام ، كما يقول الحافظ ابن كثير[1] رحمه الله تعالى : « ثم جاءه بها - أي بصدر سورة العلق - مرة ثانية يقظة ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم في غار حراء ، كما تفيده رواية الصحيحين ، وذلك يوم الاثنين ، من شهر رمضان ذاته من عام (٤١) من عمره المبارك صلى الله عليه وآله وسلم .

والذي نخرج به من هذا التعقيب على قضية بدء الوحي ، وبدء نزول القرآن الكريم ، وعدم التفريق بينهما ، والغموض الذي اكتنفهما في كتاب شيخنا الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى ، هو أن القارئ لن يخرج بتصور واضح لهما ، بل ستبقى هذه القضية غامضة وملتبسة عليه .

وأنا لا أريد بهذا الكلام التعريض بشيخنا الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى ، معاذ الله تعالى ، وإن هذا الذي وقع منه وأشرت إليه لن يضيره ، ولن ينقص من قدره ، ولن يطعن بعلمه وتبحره في علم الحديث ، لكنني أردت به شيئين :

الأول : بيان وجهة نظري فيما قاله د. عبد الله ؛ بأن التخصص بعلم الحديث فقط لا يكفي للقيام بتحقيق السيرة النبوية ، ولا بد معه من التخصص في السيرة النبوية .

الثاني : إذا كان وقع من شيخنا الشيخ ناصر هذا الذي أشرت إليه - وهو من هو في علم الحديث - فإنه سيقع من غيره ممن هم ليسوا في مستواه في علم الحديث ، بل ولم يقاربوه ، أضعاف أضعاف ذلك .

ولنأخذ الآن نماذج أخرى من هذه الكتب التي سماها أصحابها بالسيرة الصحيحة ، أو صحيح السيرة ؛ لنرى أن ما اشتملت عليه هذه الكتب لا تترجم العنوان ولا تصدقه :

---

(١) البداية والنهاية ٤/٣ ، ط١ ، مصورة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الكتاب الثاني[١] : وهو كتاب الدكتور أكرم ضياء العمري ، الذي سماه (السيرة الصحيحة)[٢] .

يقول الدكتور أكرم ص ١٢٤ : « بعث رسول الله وعمره أربعون سنة » ، وفي الحاشية عزا كلامه هذا إلى الصحيحين وإلى سيرة ابن هشام .

وبعد أن يشير إلى مرسل الشعبي ويرده يقول : « ثم إن مفاجأة الوحي للنبي ؛ تدل على خلافه - أي على خلاف مرسل الشعبي - مما يؤيد رواية الصحيحين بأن البعثة المحمدية بدأت وعمره أربعون سنة .

وثبت أن الوحي نزل عليه أول ما نزل يوم الاثنين .

والمشهور أن نزول القرآن بدأ في شهر رمضان » .

ثم يقول في الصفحة التي تليها ١٢٥ : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخلو في غار حراء ... ولا نعلم متى حبب إليه الخلاء بالغار على وجه التحديد ، ولكن ذلك كان قبل البعثة ، وبعد أن بدئ بالرؤيا الصادقة ، التي كانت تمهيدًا للوحي » .

ثم يقول : « وفي نهار يوم الاثنين ، من شهر رمضان ، جاءه جبريل بغتة لأول مرة داخل غار حراء » ا.هـ.

قلت : قول الدكتور أكرم : « بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعمره أربعون سنة » غير دقيق ، ولم يوضح متى كان ذلك في ذلك العام ؟ هل كان في بدايته أو وسطه أو نهايته ، في الوقت الذي أشار فيه في الحاشية إلى الصحيحين ، ورواية الصحيحين صريحة في أن ذلك كان على رأس الأربعين من عمره المبارك عليه الصلاة والسلام ، أي في الثاني عشر من ربيع الأول ، وهو اليوم الأول من عام (٤١) من عمره المبارك صلى الله عليه وآله وسلم - كما تقدم - وعزا كلامه أيضًا إلى ابن إسحاق ، وكلام ابن إسحاق صريح في أنه على رأس الأربعين - كما هو في الصحيحين - .

قال ابن إسحاق : « فلما بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعين سنة ، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشير »[٣] .

---

(١) على اعتبار أن الكتاب الأول هو كتاب شيخنا الشيخ ناصر الدين الألباني .

(٢) ط ١٤١٢هـ .

(٣) ابن هشام ٢٣٣/١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ولا أدري ما الذي جعل الدكتور أكرم يعدل عن تعبير الشيخين الدقيق المحدد ، وكذلك تعبير ابن إسحاق إلى تعبيره العائم غير الدقيق .

ولعل السبب في ذلك ؛ أن بدء البعثة غير واضح لديه ، بدليل قوله : « وبعد أن بدئ بالرؤيا الصادقة التي كانت تمهيدًا للوحي » ، فهو لم يعتبر رؤيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصادقة وحيًا ، في الوقت الذي هي فيه وحي ، وبها بدأت نبوته صلى الله عليه وآله وسلم ، كما هو صريح حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها في الصحيحين .

في صحيح البخاري قالت رضي الله تعالى عنها : « أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من النبوة الرؤيا الصالحة في النوم »[١] الحديث .

وفي صحيح مسلم ، قالت رضي الله تعالى عنها : « كان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم »[٢] الحديث .

الكتاب الثالث : كتاب الشيخ إبراهيم العلي ، الذي سماه (صحيح السيرة النبوية) ، فهو يقول فيه عن بدء الوحي وبدء نزول القرآن الكريم :

« في سن الأربعين أوحي إلى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزل عليه الوحي في غار حراء بالرسالة السماوية الخالدة »[٣] اهـ.

ثم أورد حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : « أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن أربعين » .

وتحت عنوان : « فترة الوحي » أورد حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه ، قال : « اشتكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثًا ، فقالت امرأة : ما أرى شيطانك إلا تركك ، فأنزل الله : ﴿ والضحى ، والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ﴾ ، وعزاه في الحاشية للبخاري ومسلم وغيرهما .

قلت :

١ - عبارته : « في سن الأربعين أوحي إلى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزل عليه الوحي في غار حراء بالرسالة السماوية الخالدة » يؤخذ عليه ما

---

(١) صحيح البخاري ١/٤ ، ك ٦ ، ب ١ ، ح ٣ .

(٢) صحيح مسلم ١/١٣٩ ، ك ١ ، ب ٧٣ ، ح ٢٥٢ .

(٣) ص ٤٩ ، ط٢ ، ١٤١٦هـ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أخذته على من قبله من عدم الدقة في التعبير ، وأنه لم يحدد متى نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من سن الأربعين ؟! وهذا يدل على أن الأمر غير واضح لديه ، وهذا الغموض يتنافى مع تسمية كتابه : (صحيح السيرة النبوية) التي تقتضي أن يكون كل ما فيه من وقائع السيرة النبوية صحيحًا وواضحًا .

٢ - قوله : « فنزل عليه الوحي في غار حراء » يشير أنه التبس عليه بدء الوحي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وبين بدء نزول القرآن الكريم ، وقد تقدم معنا أن الوحي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بدأ بالرؤيا الصادقة (أو الصالحة) وهو صلى الله عليه وآله وسلم على رأس الأربعين من عمره المبارك ، وذلك يوافق الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، أي اليوم الأول من عام (٤١) من عمر النبي المبارك صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن بدء نزول القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنزول مطلع سورة العلق كان في شهر رمضان المبارك من عام (٤١) من عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد كان عمر النبي المبارك صلى الله عليه وآله وسلم إذ ذاك أربعين سنة وستة أشهر .

وبناء على هذا ؛ فقد خالف الشيخ إبراهيم العلي الصحيحين في موقعين اثنين :

الأول : عدم اعتباره بدء الوحي بالرؤيا الصادقة (أو الصالحة) كما هو صريح حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ، بل اعتبرها بمجيء جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام في غار حراء بصدر سورة العلق .

الثاني : اعتباره بدء الوحي بمجيء جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام بصدر سورة العلق في غار حراء يعني أن الوحي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بدأ في شهر رمضان من عام (٤١) من عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد كان عمر النبي المبارك حينذاك أربعين سنة وستة أشهر ، وهذا خلاف ما ورد في الصحيحين من أن الوحي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بدأ والنبي عليه الصلاة والسلام كان على رأس الأربعين من عمره المبارك صلى الله عليه وآله وسلم - كما تقدم - .

هذا اللبس بين بدء الوحي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وبين بدء نزول القرآن الكريم عليه ، وما في هذا اللبس من مخالفات

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لما ورد في الصحيحين تشير إلى الغموض الذي اكتنف هذه القضية في ذهن الشيخ إبراهيم العلي ، وهذا يتنافى مع عنوان الكتاب .

والعجيب في فعل الشيخ إبراهيم العلي في هذه النقطة ؛ أنه خالف ما شرطه على نفسه في مقدمته بقوله : « اعتمدت في نقل نص الحدث التاريخي لفظ الحديث الأكثر فائدة ، والأجمع للمعاني الغزيرة ، من خلال انتقاء اللفظ من روايات الحديث الكثيرة .. » .

ثم يقول : « وكنت إذا وجدت هذا اللفظ في صحيح البخاري ؛ لم أتعداه إلى غيره من المصنفات ، وإلا فمسلم وأصحاب السنن »[1] اهـ.

وقد تقدم معنا نص البخاري ومسلم ؛ من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعثه الله تعالى على رأس الأربعين من عمره المبارك عليه الصلاة والسلام ، وتقدم نصهم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ؛ من أن الوحي أو النبوة بدأت بالرؤيا الصادقة (أو الصالحة) ، ولفظهما في هذين الأمرين هو الأكثر فائدة ، والأجمع للمعاني ، والأدق في التحديد ، فلماذا عدل عنهما إلى حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وهو - وإن كان في الصحيحين - لكنه مجمل ، ويُحمل المجمل على المفصل ، وكان على الشيخ إبراهيم أن يعتمد النص المفصل ، بناء على شرطه الذي شرطه على نفسه ، لكن الذي يبدو أنه لم يعرفه ، ولو عرفه لاعتمده .

٣ - حديثه عن فترة الوحي بعد نزول مطلع سورة العلق ، وإيراده حديث الصحيحين ، وفيهما قول المرأة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما أرى شيطانك إلا تركك ، ونزول سورة ﴿ والضحى ﴾ يدل على عدم معرفة الشيخ إبراهيم بما ورد في الصحيحين عن فترة الوحي المشار إليها ، وأنه قد التبست عليه فترة الوحي الأولى ، المشار إليها ، والتي كانت عقب نزول صدر سورة العلق بفترات أخرى ، توقف فيها الوحي ، ومنها الفترة التي ذكرها .

---

(١) ص ١٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ففي الصحيحين[١] عن فترة الوحي التي أعقبت نزول صدر سورة العلق ، واللفظ للبخاري : « بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء ، فرفعت بصري ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ﴾ .. إلى قوله : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ ، فحمي الوحي وتتابع » .

إن رواية الصحيحين التي أوردها الشيخ إبراهيم عن فترة الوحي ، ونزول سورة الضحى ليست عن الفترة الأولى التي كانت عقب نزول صدر سورة العلق ، وإنما كانت عن فترة أخرى بعد الجهر بالدعوة ، وتصدي المشركين لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأذى وغيره من أساليب الفتنة والصد عنه ، ولذا ورد في رواية أخرى عند مسلم : « فقال المشركون : ودع محمد ، فأنزل الله ﷻ ﴿ والضحى ﴾ ... الخ »[٢] .

أما الفترة الأولى ؛ فلم يكن أحد من البشر قد علم بنزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم سوى زوجته أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها ، وورقة بن نوفل رحمه الله تعالى ؛ إذ لم يكن النبي صلى الله عليه وآله ولم قد حدث غيرهما بمجيء جبريل إليه عليه الصلاة والسلام بصدر سورة العلق ، حتى يصح اعتراض المرأة المشركة أو المشركين واستهزاؤهم وشماتتهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

إن هذا اللبس بين بدء الوحي وبدء نزول القرآن الكريم ، وعدم التدقيق في تاريخ كل منهم ، وكذلك اللبس بين فترة الوحي الأولى ، التي أعقبت نزول صدر سورة العلق ، وبين غيرها من الفترات ، لا سيما بعد الجهر بالدعوة ، وتصدي المشركين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأذى ، وعدم الانتباه لظروف الفترتين لا يترجم عنوان الكتاب (صحيح السيرة النبوية) ، بل ويقدم الدليل على أن الاعتماد على منهج المحدثين وحده لا يكفي ، وأن تدوين السيرة النبوية لا يقدر عليه باحث واحد متخصص في الحديث الشريف ،

---

(١) صحيح البخاري ٥/١ –٦ ، ك ١٠ ، ب ١ ، ح ٤ ، وصحيح مسلم ١٤٣/١ –١٤٤ ، ك الإيمان ، ب ٧٣ ، ح ٢٥٥ –٢٥٧ .

(٢) صحيح مسلم ١٤٢١/٣ –١٤٢٢ ، ك ٣٢ ، ب ٣٩ ، ح ١١٤ .

أو له عناية به ، حتى ولو انضم إليه جهد غيره ممن لهم عناية بالحديث الشريف ، أو المتخصصين به[١] ، فإن ذلك لا يكفي ، ولا بد أن يكونوا من المتخصصين في السيرة النبوية - كما قدمت - .

الكتاب الرابع : كتاب د. محمد الطرهوني (صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية) :

هذا الكتاب فيه طامات ، وفيه خلط كبير بين وقائع السيرة ، وفيه أخطاء علمية معيبة ، وفيه مخالفات للصحيحين ، وللصحيح من وقائع السيرة النبوية ، وفيه تتبع شواذ المسائل المثيرة للخلاف ، عدا العبارات الجارحة بحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، التي تتنافى وعصمته وكماله البشري ، والتي تصدم شعور كل مسلم محب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعظمه ويوقره .

وأكتفي باستعراض مسألة واحدة فقط ، اشتملت على كل ما أشرت إليه ، وهي مسألة بدء الوحي ، وبدء نزول القرآن الكريم ، وفترة الوحي ، وعودته .

يقول في ص ٣٥ من كتابه المذكور[٢] : « ثم كان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فعلى رأس الأربعين في اليوم الموافي الثاني عشر من ربيع الأول ، يوم الاثنين ، بينما هو نائم ؛ إذ أتاه بنمط من ديباج مكتوب فيه : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ » .

١ - هذا الكلام فيه خلط وتناقض ؛ فهو يخلط بين بدء الوحي بالرؤيا الصادقة ، والذي كان على رأس الأربعين من عمر النبي المبارك صلى الله عليه وآله وسلم في الثاني عشر من ربيع الأول يوم الاثنين - كما قال - وذلك هو اليوم الأول من عام (٤١) من عمر النبي المبارك صلى الله عليه وآله وسلم ، يخلط بينه وبين نزول جبريل عليه الصلاة والسلام بصدر سورة العلق ، حين كان النبي

---

(١) لقد راجع الكتاب المذكور (صحيح السيرة النبوية) للشيخ إبراهيم العلي أستاذه د. همام سعيد ، أستاذ الحديث في كلية الشريعة الأردنية سابقًا ، وأثنى عليه ، واعتبره إحدى البدايات المهمة في كتابة السيرة من وجهة نظر المحدثين (ص ٧-٨ ، ومع هذا فلم ينتبه للبس الذي أشرت إليه في قضية واحدة من قضايا السيرة النبوية ، التي اشتمل عليها الكتاب .

كما أن د. عمر سليمان الأشقر لم ينتبه إليه ، والذي يبدو من تقديمه للكتاب أنه راجعه (ص ٦-٧)، وعذرهما أنهما غير متخصصين في السيرة النبوية ، وهذه الملاحظة أقدمها للأخ د. عبد الله الرحيلي .

(٢) الجزء الثاني ، ط ١ ، ١٤١٤هـ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عليه الصلاة والسلام نائمًا في غار حراء ، كما هو صريح حديث عبيد بن عمير ، وقد تقدم ، وكان عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم حينذاك أربعين سنة وستة أشهر ، ولم يكن على رأس الأربعين . فقد نقض بقوله هذا قوله : « على رأس الأربعين » !! إلا أن يكون مؤلف الكتاب المذكور قد زعم أن أول رؤيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، التي بدأت بها نبوته في الثاني عشر من ربيع الأول ، هي التي جاءه فهيا جبريل عليه الصلاة والسلام بصدر سورة العلق وهو نائم في غار حراء ، كما يفيده سياقه .

وهذا أمر لا أعلم أحدًا من العلماء قاله ، بل إن مؤلف الكتاب المذكور نفسه يقول في حاشية ٣٣٠ من حواشي كتابه المذكور ص ٣٥٨ من المجلد الأول : « فأما الرؤيا التي نصت على وجود المنام ؛ فأصلها رواية الصحيح عن عائشة ، ولكنها لم تذكر ماذا رأى » ، فإذا كانت لم تذكر ماذا رأى ، وهذا صحيح ؛ فمن أين جاءنا إذن بأن مجي جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام بصدر سورة العلق في المنام كان في الثاني عشر من ربيع الأول على رأس الأربعين من عمره المبارك عليه الصلاة والسلام ؟!

٢ - إن حديث عبيد بن عمير من الذي يعترف مؤلف الكتاب المذكور بصحة سنده ، يصرح بأن مجيء جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام بصدر سورة العلق في المنام ، في غار حراء ، كان في شهر رمضان وليس في الثاني عشر من ربيع الأول - كما ورد في الكتاب المذكور - .

٣ - يقول في ص٣٦ : « حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، في يوم الاثنين ، الموافق الرابع والعشرين من رمضان ، فجأه الملك فيه ، وهو جبريل ، فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ ... الخ .

ثم قال في الصفحة التي قبلها ص ٣٧ : « فأنزل الله ﷻ القرآن بعد أن فصل من الذكر جملة واحدة ، في ليلة القدر ، ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان إلى السماء الدنيا ، فوضع في بيت العزة » ... إلى أن يقول : « فكان أول ما نزل به تلك الليلة ﴿ اقرأ ﴾ إلى قوله : ﴿ ما لم يعلم ﴾ » اهـ.

وهنا نجد تناقضًا واضحًا ؛ فهو يقول في ص٣٦ : « إن جبريل عليه الصلاة والسلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصدر سورة العلق في الرابع والعشرين ،

ونهارًا ، بينما يقول في ص ٣٧ كان مجيء جبريل عليه الصلاة والسلام بصدر سورة العلق في ليلة الخامس والعشرين ، وليلاً !! فأيهما الصحيح في الكتاب المذكور ؟!! أهكذا يكون شأن صحيح السيرة النبوية ؟! والسيرة الذهبية ؟!!!

٤ - يقول في ص ٣٧-٣٨ : « ثم أتاه جبريل عليه السلام في أول ما أوحي إليه ، فأراه الوضوء والصلاة ... الخ ، دون أن يبين لنا متى جاء جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام بالوضوء والصلاة ؟! هل أتاه بهما عقب نزول مطلع سورة العلق - كما يفيده سياقه - ؟ أو أتاه به بعد فترة الوحي ؟ أو خلالها ؟ أو بعدها ؟ ولذا فإن القارئ يخرج بصورة غائمة عن هذا الموضوع ؟!

٥ - يذكر افتراض الصلاة ونزول سورة الفاتحة ، وإسلام أم المؤمنين خديجة وعلي رضي الله تعالى عنهما قبل نزول مطلع سورة المدثر ؛ خلافًا لما هو ثابت في السيرة وفي صحيح مسلم من أن هذه الأمور كانت بعد انتهاء فترة الوحي ، ونزول صدر سورة المدثر ، التي أرسل فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكلف فيها بالتبليغ. ثم يسمي كتابه : صحيح السيرة ، أو السيرة الذهبية ، وفيه هذه المخالفات لصحيح السيرة النبوية ؟!!

روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه ، قال : حدثني محمد بن رافع ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري بهذا الإسناد نحو حديث يونس ، قال : « فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ... إلى قوله : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ قبل أن تفرض الصلاة »[1] .

ولذا فإن ابن هشام ذكر افتراض الصلاة بعد فترة الوحي وعودته[2] ، وإن كان قد ذكر فترة الوحي بعد إسلام أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها بما يوهم غير المتمكنين في السيرة ، أن إسلامها رضي الله تعالى عنها كان في فترة الوحي ، لكن من يقرأ سيرة ابن هشام بشيء من التدبر ؛ يجد ابن إسحاق أشار إلى عودة الوحي قبل إسلامها رضي الله تعالى عنها .

فهو يقول في ص ٢٤٠ : « قال ابن إسحاق : ثم تتام الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو مؤمن بالله ، مصدق بما جاءه ... الخ » .

---

(١) صحيح مسلم ١٤٤/١ ، ك الإيمان ، ب ٧٣ ، ح ٢٥٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٤٣/١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ثم يذكر بعد ذلك إسلام أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها وأرضاها ، وقد مشى الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى على هذا الترتيب في البداية والنهاية ، فقال في ص ٢٣ من الجزء الثالث : « قال ابن إسحاق : ثم تتابع الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو مصدق بما جاءه ... » ، ثم قال بعد ثلاثة أسطر : « قال ابن إسحاق : وآمنت به خديجة وصدقت بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره ... الخ » .

ثم قال في السطر السابع قبل الأخير من الصفحة ذاتها : « ثم إن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين افترضت عليه الصلاة ، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي ، فانفجرت له عين من ماء زمزم » .

ثم ذكر تعليم جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام الوضوء والصلاة ، ثم ذهاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خديجة رضي الله تعالى عنها ، ومجيئه بها إلى عين الماء المذكورة ، وتعليمه لها الوضوء والصلاة .

وفي السطر الأخير من الصفحة ذاتها يقول الحافظ ابن كثير : « قلت : صلاة جبريل هذه غير الصلاة التي صلاها به عند البيت مرتين ، فبين له أوقات الصلوات الخمس ، أولها ، وآخرها ، فإن ذلك كان بعد فرضيتها ليلة الإسراء ، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله ، وبه الثقة ، وعليه التكلان » اهـ.

لكن الكتاب المذكور[1] خالف في ذلك ، وجعلها هي ، فقال في ص ٣٨ : « فأتاه لما افترضت عليه الصلاة ، فأمه عند البيت مرتين ... الخ » اتباعًا منه لابن إسحاق .

وقد علق السهيلي رحمه الله تعالى على قول ابن إسحاق رحمه الله تعالى بقوله : « وهذا الحديث - أي إمامة جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام عند البيت ، لم يكن ينبغي أن يذكره في هذا الموضع ؛ لأن أهل الصحيح متفقون على أن هذه القصة كانت في الغد من ليلة الإسراء »[2] اهـ.

---

(١) سأعمد من هنا فصاعدًا إلى الإشارة إلى الكتاب – أي إلى كتاب الطرهوني ، الذي سماه (صحيح السيرة النبوية المسماة بالسيرة الذهبية) – فأقول : (الكتاب المذكور) دون ذكر المؤلف – إلا ما ذكر سهوًا – ؛ لأن الكتاب وما ورد فيه من أخطاء علمية هو المقصود بالنقد وليس مؤلفه .

(٢) الروض الأنف ٣/١٥ .

أضف إلى ذلك ؛ أن الكتاب المذكور جعل نزول الفاتحة ، وصلاة جبريل بالنبي عليهما الصلاة والسلام قبل نزول مطلع سورة المدثر - على ما فيه من مخالفة لما ورد في صحيح مسلم كما ذكرته آنفًا - يعني أن جبريل عليه الصلاة والسلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فترة الوحي ، وهذا يتناقض مع الروايات الصحيحة التي تقول : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حزن حزنًا شديدًا لانقطاع جبريل عن النبي عليهما الصلاة والسلام بعد نزوله عليه بصدر سورة العلق ، حتى نزل بصدر سورة المدثر ، وإلا فلماذا كان حزن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان جبريل عليه الصلاة والسلام جاءه بالفاتحة والصلاة التي أقر الله تعالى بها عينه في فترة الوحي قبل نزول مطلع سورة المدثر ؟!

٦ - ثم قال في الكتاب المذكور ص ٤٠ : « ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي ، حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم. واشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا ، فقالت له خديجة : يا رسول الله ؛ ما أرى صاحبك إلا قد قلاك ، ولم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث » .

ثم تحدث عن عودة الوحي ، فقال : « فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم جواره ، وكانت مدة الجوار شهرًا ؛ نزل فاستبطن الوادي » إلى أن يقول : « فأنزل الله ﷻ : ﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ﴾ ثم حمي الوحي بعد وتتابع » .

وقال : « وأنزل الله تعالى : ﴿ ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ ، لظنه صلى الله عليه وسلم بنفسه . وقال تعالى : ﴿ وإن لك لأجرًا غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ يعني : دين عظيم » .

ثم يقول : « وأنزل الله ﷻ : ﴿ والضحى ، والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ﴾ لمقالة خديجة » .

ثم قال : « ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ، يعني : كان على أمر قومه أربعين عامًا » .

ثم قال : « ثم أنزل الله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ، يعني : ما كان في طفولته . ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ ، أي ذنبك ، ﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ ، يعني ما كان في جاهليته » ا.هـ.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

قلت : إن هذا الكلام ، وما فيه من جرأة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، تتنافى مع عصمته وكماله البشري عليه الصلاة والسلام ، وتصدم مشاعر المسلمين ، وتجرح قلوبهم ، لا يمكن أن يصدر عن مسلم يحمل في قلبه ما يجب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من تعظيم وتوقير .

ثم إن هذا الخلط في ترتيب الوقائع التي ذكرها ، لا يصدر عمن عنده علم بالسيرة النبوية ، وهذا هو البيان .

١ - إن فترة الوحي التي أشار إليها الكتاب ، ليست هي فترة الوحي الأولى ، التي أعقبت نزول صدر سورة ﴿ اقرأ ﴾ ، وإنما هي فترة أخرى ، كما ورد ذلك في الصحيحين وفي غيرهما .

ففي الصحيحين[١] عن الفترة الأولى التي أعقبت نزول مطلع سورة العلق -واللفظ للبخاري - : عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما - وهو يحدث عن فترة الوحي - قال في حديثه : « بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء ، فرفعت بصري ؛ فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، والرجز فاهجر ﴾ ، فحمي الوحي وتتابع » اهـ.

أما فترة الوحي التي ذكرها الكتاب المذكور ، وقال : إنها هي التي كانت عقب نزول صدر سورة العلق ، فليس صحيحًا ، وإنما كانت فترة أخرى ، كما ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك ص ٢٤ ، في التعقيب على كتاب الشيخ إبراهيم العلي ؛ إذ وقع في الخطأ نفسه !

ففي الصحيحين[٢] -واللفظ للبخاري - : عن الأسود بن قيس قال : سمعت جندب بن سليمان رضي الله تعالى عنه قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثًا ، فجاءت

---

(١) البخاري ٥/١-٦ ، ك بدء الوحي ، ب ١ ، ح ٤ ، ومسلم ١٤٣/١ ، ك الإيمان ، ب ٧٣ ، ح ٢٥٦ .

(٢) البخاري ١٨٩٢/٤ ، ك التفسير ، ب ٤٤٠ ، ح ٤٦٦٧ . وانظر أطراف الحديث ، ومسلم ١٤٢١/٣-١٤٢٢ ، ك الجهاد والسير ، ب ٣٩ ، ح ١١٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

امرأة فقالت : يا محمد ؛ إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، ولم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ والضحى ، والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ﴾ » اهـ.

وعند مسلم : « فقال المشركون : قد وُدِّع محمد » .

لكن الكتاب المذكور أعرض عن رواية الصحيحين ، وجاء عرضه لهذه الواقعة مضطربًا ، وخلط بين الفترتين وما نزل فيهما ، ولذا ذكر نزول مطلع سورة المدثر ، وسورة الضحى ، وزاد عليهما سورة ﴿ ن ﴾ ؛ مما يدل على عدم وضوح هذه الوقائع لديه ، واختلاطها عنده ، إلا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل اعتمد رواية مرسلة ، تزعم أن التي قالت ذلك هي أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها ، وحرف كلام الحافظ ابن حجر ؛ ليدعم بطلان ما ذهب إليه ، ذلك أن الحافظ ابن حجر ؛ لما رأى اختلاف الروايات المرسلة ، بين قائلة : يا محمد ؛ ما أرى شيطانك إلا قد قلاك أو تركك ، وقائله : يا رسول الله ؛ ما أرى صاحبك إلا أبطأك[1] ، قال عن الأولى : إنها قالته تهكمًا وشماتة ، وعن الثانية : إنها قالته تأسفًا وتوجعًا ، ثم استظهر أن كل مقالة صدرت من امرأة غير الأخرى[2] ، وأن المشركة هي أم جميل العوراء ؛ امرأة أبي لهب ، ثم عاد فاستظهر في الجزء الثامن من الفتح ص ٧١١ أنهما امرأتان ، وأن الأولى هي أم جميل ، وأنها قالته شماتة وتهكمًا ، والثانية هي أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها ، وأنها قالته : تأسفًا وتوجعًا ، لكن في الكتاب المذكور حُرِّف كلام الحافظ ابن حجر ، فقال في حاشية ٣٣٦ ، ص ٣٦٦ من الجزء الأول : « ثم جزم بكون القائل امرأتين ؛ إحداهما خديجة ، والأخرى امرأة أبي لهب ، ثم تحمس لإثبات أن القائلة أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها ، وصحح الروايات التي تقول : إنها خديجة ، على الرغم من ضعفها ، وأن أصحها رواية مرسلة ورَدَّ بها رواية الصحيحين التي تقدمت ص ٣١ ، ثم قال : « وأما لفظة (شيطانك) فهي من تصرف الرواة » ؟!

---

(١) البخاري ١٨٩٢/٤ ، ك التفسير ، ب ٤٤١ ، ح ٤٦٦٨ .

(٢) الفتح ٩/٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لا أدري إن كان مؤلف الكتاب المذكور قد انتبه لخطورة قوله هذا : « وأما لفظة (شيطانك) فهي من تصرف الرواة » وقد أوردها بصيغة الجزم .

إن المشركين هم الذين كانوا يقولون عن جبريل عليه الصلاة والسلام (شيطانك) ، فهل كان الرواة - وهم مسلمون ثقات - يقولون عن جبريل عليه الصلاة والصلاة ما كان المشركون يقولونه ؟ وإلا فما تفسير كون الرواة هم الذين بدلوا كلمة (صاحبك) بكلمة (شيطانك) ، وهل تصدر مثل هذه التسمية لجبريل عليه الصلاة والسلام من مسلم ؟! ولو صدرت من راو - وهو مستحيل - هل تقبل بعد ذلك روايته أو تعتبر موضوعة ؟!

لقد عُرف عن بعض الرواة الثقات التصرف في ألفاظ الرواية ، لكن تصرفهم يبقى في حدود الألفاظ المترادفة ، أما التصرف الذي يغير المعنى ، ويقلبه رأسًا على عقب ؛ فهذا لا أعرفه صدر عن الرواة الثقات ، وإنما صدر عن الرواة المتهمين ، ولذا فإن عبارة الكتاب المذكور : « وأما لفظ (شيطانك) هو من تصرف الرواة » وبهذا الجزم ؛ فيه اتهام كبير للرواة الثقات ، وما أظن أن أهل الحديث الشريف يفعلونه .

في الواقع لا أدري سر هذا الإصرار على نسبة هذه الكلمة لأم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها ، علمًا بأن قوة إيمانها بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، ويقينها برسالته تمنعها من أن تفكر في مثل هذه الكلمة مجرد تفكير ، وهي التي وازرت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أول لقائه بجبريل عليه الصلاة والسلام إلى آخر حياتها ، وهي التي قالت له صلى الله عليه وآله وسلم حين قال لها : « لقد خشيت على نفسي » :كلا والله ما يخزيك الله أبدًا ؛ إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق.

أفتراها بعد أن قرأت القرآن الكريم ، وصلت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم تتراجع عن ذلك ، وتقول ما نسب إليها ، حاشاها من ذلك رضي الله تعالى عنها .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما الروايات المرسلة - وإن صح سندها - فإنه لا يلزم من ذلك صحة المتن ، لا سيما أن هناك روايات أخرى ذكرها الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/٣) ، قال : « وفي تفسير الطبري : فقالت امرأة من أهله أو من قومه » ، ولعل بعض الرواة فسر « من أهله » بأم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها ، وهو من ثم تصرف من بعض الرواة ، وهذا أحد احتمالين أشار إليهما الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير سورة ﴿ والضحى ﴾ ، فقال : « ولعل ذكر خديجة ليس محفوظًا » . قال هذا بعد أن قال عن الحديث : إنه مرسل من الوجهين .

وكان الأولى بمؤلف الكتاب المذكور حين قال : « أما لفظة (شيطانك) فهي من تصرف الرواة » ، أن يقول كما قال الحافظ ابن كثير ، أو أن يقول : إن صح الخبر عن أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها أن يقول : لعلها قالت له : ما أرى صاحبك أو ربك قد قلاك ، بدون حرف (إلا) ، الذي قلب المعنى رأسًا على عقب ، ولعل إضافة (إلا) تصرف من بعض الرواة ؛ فإن هذا التخريج يتفق مع سيرتها مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومع كلمتها في بدء الوحي ، ولا يؤدي إلى اتهام الرواة بما لا يليق بهم .

وأعود فأقول : ما أدري ؛ ما الذي دفع مؤلف الكتاب المذكور لأن يقتصر على الرواية المرسلة ، التي تقول : إن أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها هي التي قالت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك ، وهي أقوى إيمانًا ، وأرفع قدرًا من أن يصدر منها ذلك ، ويعرض عن روايات الصحيحين ، وعما قاله الطبري وابن كثير ، بل ويستشهد برواية سعيد ، وهي ضعيفة كما قال الحافظ ابن حجر ؛ لأنه أسند العبارة المشار إليها إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ، ولعلها لم تكن قد ولدت ، أو كانت رضيعة ، وليس هذا وحسب ؛ بل ويحمله ذلك على أن يحرف الكلم عن مواضعه ، فيقول عن الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : إنه جزم بذلك ، وهو لم يجزم ، وإنما استظهر ذلك ؟!! وفرق واضح بين الاستظهار الذي يحتمل أكثر من وجه ، وبين الجزم الذي لا يحتمل سوى وجه واحد ؟!

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٢ - تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ ، بقوله : « لظنه صلى الله عليه وسلم بنفسه » اهـ.

قلت :

أ - إن سورة ﴿ ن ﴾ نزلت بعد الجهر بالدعوة ، وليس كما ورد في الكتاب المذكور بأنها نزلت بعد مطلع سورة المدثر وسورة الضحى ، كما يفيده كلامه ، والخلط الذي فيه ، ومما يدل على أنها نزلت بعد الجهر بالدعوة ، وتصدي المشركين له بالأذى ، قوله تعالى بعدها : ﴿ فستبصر ويبصرون ، بأيكم المفتون ﴾ .

ب - ما ورد في الكتاب المذكور من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يظن بنفسه الجنون ، حتى نزلت ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ ، فيه غاية الإساءة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا أعلم أحدًا قال ذلك سوى المشركين في عهده صلى الله عليه وآله وسلم ، والمستشرقون في هذا العصر ، ولا أعلم أحدًا من المفسرين قاله ، فمن أين جاء المؤلف بهذا الافتراء الشنيع ؟؟!!!

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره ١٢/٢٩[1] : « ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ مكذبًا بذلك مشركي قريش ؛ الذين قالوا له : إنك مجنون » اهـ.

ويقول الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤٠٢/٤ : « وقوله : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ أي : لست ولله الحمد بمجنون ، كما يقول الجهلة من قومك ، المكذبون بما جئتهم من الهدى والحق المبين ، فنسبوك إلى الجنون » اهـ.

ولذا ؛ فإن مؤلف الكتاب المذكور مُطالب بأن يذكر لنا من أين جاء بهذا التفسير الباطل والآثم ؟ ومن قال به من علماء المسلمين ، المشهود لهم بالعلم الصحيح سلفًا وخلفًا ، ونحن معذورون إذا ارتبنا بالغرض من هذا التفسير ، الذي يتنافى مع عصمته صلى الله عليه

(١) نسخة مصورة سنة ١٤٠٧هـ ، دار الحديث ، القاهرة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وآله وسلم ؟ فهل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يظن في نفسه الجنون لبضع سنوات من بدء الوحي ونزول القرآن الكريم ؟؟!!!

لو جاءنا مسلم وقال : إن نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم كان يظن في نفسه الجنون لبضع سنوات من نزول القرآن وبعد الجهر بالدعوة ؛ فماذا نقول له عنه ؟!

قد يقال : إن مؤلف الكتاب المذكور يعتقد أن نزول سورة ﴿ ن ﴾ كان في بدء أمره صلى الله عليه وآله وسلم ، وليس بعد الجهر بالدعوة .

قلت : حتى ولو قيل هذا ؛ فهل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يظن في نفسه الجنون ، حتى بعد نزول صدر سورة ﴿ اقرأ ﴾ ، وتيقنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه نبي هذه الأمة ؟ وما نقول عمن يقول ذلك ؟!

ولعله يقال : إن المؤلف فهم ذلك من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لقد خشيت على نفسي » ، وهي في الصحيحين وغيرهما[١] ؛ فإن كان الأمر كذلك فهو فهم سقيم ، جد سقيم .

هذا ؛ وقد بينت المراد بهذه العبارة في تحقيقي لكتاب (خلاصة سير سيد البشر صلى الله عليه وآله وسلم)[٢] للمحب الطبري رحمه الله تعالى ، وأرى ضرورة ذكر ذلك لإزالة كل شبهة ، قلت : « قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لقد خشيت على نفسي » هي في الصحيحين وغيرهما ، لكنها وردت بلفظين مختلفين :

الأول : بضم تاء « خشيتُ » ، على أنها للمتكلم ، وهي في البخاري من رواية أبي ذر عن الكُشميهني ، وهي كذلك عند مسلم .

الثاني : بتشديد ياء « عليَّ » ، وهي في البخاري من رواية أبي ذر ، عن الحَمُّوي ، والمستملي[٣] ، وعند الإمام أحمد في المسند[٤] ،

---

(١) البخاري ك ١ ، ب ١ ، ح ٣ ، وانظر أطراف الحديث ، ومسلم ك الإيمان ، ب ٧٣ ، ح ٢٥٢ .

(٢) ط١ ، القسم الأول ، ص ٢٤٨ – ٢٥١ .

(٣) إرشاد الساري ١٢٠/١٠ .

(٤) ٢٣٢/٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والزهري في مغازيه[١] ، على أن العبارة خرجت مخرج الخطاب الاستفهامي الموجه إلى أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها ، وبأسلوب الإنكار التعجبي ، لما رأى عليها الخوف والارتياع عليه ، حين رأت آثار الجهد والمكابدة ظاهرة عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال لها : « خشيتِ عليَّ ؟ » بكسر تاء (خشيت) ؛ أي : هل خشيتِ عليَّ ؟!

فقالت : كلا ، أبشر والله ... الخ .

وعلى هذه الرواية ؛ لا إشكال فيها ، إنما الإشكال على الرواية الأولى « بضم تاء خشيت » ، والتي وردت فيها العبارة بأسلوب الخطاب الإخباري ، والتي يخبر فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم عما اعتراه من الخشية .

وقد ذهب العلماء في تفسير الخشية وتعليلها إلى اثني عشر قولاً ، ذكرها الحافظ ابن حجر في الفتح[٢] ، والعيني في العمدة[٣] ، وغيرهم رحمهم الله تعالى ، وناقشوها ، ودفعوا كل تفسير يوهم ما لا يليق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو يخدش عصمته .

وخلاصة ما وقفت عليه من أقوالهم : إن الخشية وقعت منه صلى الله عليه وآله وسلم مرتين ، كما جاءت بها الروايات الصحيحة ، وهما :

الأولى : فقد كانت في بدء الأمر ؛ في فترة إرهاصات النبوة وتباشيرها ، وقبل استعلان المَلَك له ، وحين كان يكون صلى الله عليه وآله وسلم في البراري والشعاب ، فيسمع الصوت ، ويرى النور ، ولا يرى شيئًا ، أو يعرف لهما مصدرًا . وهذا مما يوجب الخشية للإنسان بمقتضى الطبع البشري ، وليس في هذه الخشية ما يتنافى مع كماله عليه الصلاة والسلام ، ما دامت النبوة لم

---

(١) مغازي الزهري ، ص ٤٤ .

(٢) فتح الباري ١/٢٤ .

(٣) عمدة القاري ١/٦٨-٦٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تأته بعد ، ولم يكن ينتظرها ، أو يفكر فيها ، كما قال تعالى : ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾[١] .

والإنسان في مثل هذه الحال ؛ لا بد أن يتساءل عن مصدر هذا النور وهذا الصوت ، وعن سرهما ؟! هل هما من جنس ما يتراءى للكهان والمجانين والشعراء ، وتتلبس بهم - كما كان يقال ؟! -، وهل يعني هذا أن أمره صلى الله عليه وآله وسلم سيصير إلى الكهانة ، أو الجنون ، أو الشعر ؟ أو أنه ستصيبه لوثة من ذلك ؟! وقد كان ذلك من أكره الأمور إليه صلى الله عليه وآله وسلم ، ومثل هذه الخشية لا تكون إلا من الكَمَلة الأطهار . وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو مثلهم الأعلى ، ومن ثم فإن وقوع مثل هذه الخشية منه عليه الصلاة والسلام دليل كماله ، ومما يزيد في مقداره ومقامه عليه الصلاة والسلام ، وليس مما يتنافى معهما أو يخدشهما ، ثم إنها انتهت بانتهاء أسبابها ، ومعرفة سيدنا رسول الله صلى عليه وآله وسلم أنه نبي هذه الأمة .

وأما الخشية الثانية : فقد كانت حين ظهر له جبريل عليه الصلاة والسلام ، وجاءه في غار حراء بصدر سورة العلق ، وغطه حتى بلغ منه الجهد ، وهو وحيد في غار حراء ، وأنزل عليه من كلام رب العالمين ؛ ما لو أنزل على الجبال لتخشعت وتصدعت ، كما قال تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله ﴾ ... الآية[٢] .

وهذه الخشية أمر بدهي في مثل هذه الحال ؛ بسبب ما فُطر عليه الإنسان من ضعف بشري ، ولو حدث مع غيره ما حدث له صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فماذا كان يصنع ؟ وما هي حاله حينذاك ؟

---

(١) سورة القصص ، آية ٨٦ .

(٢) سورة الحشر ، آية ٢١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومما يدل على هذه الخشية ، وأنها لهذه الأسباب ؛ تكررها منه صلى الله عليه وآله وسلم حين جاءه جبريل عليه الصلاة والسلام للمرة الثانية بعد حراء ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « فبينا أنا أمشي ؛ سمعت صوتًا بين السماء والأرض ، فجئت منه حتى هويت إلى الأرض »[١] ، وفي رواية : « فرعبت منه ، فجئت أهلي فقلت : زملوني زملوني »[٢] ، وفي رواية : « ففرقت منه »[٣] .

فهذه الخشية أمر فطري ؛ فطر عليها الإنسان ، ومن ثم خاف سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام حين رأى عصاه ثعبانًا ، ولم يصادم إيمانه عليه الصلاة والسلام ؛ فالخوف والخشية لا يصادمان الإيمان واليقين بشيء أصلاً ؛ لأن الخوف والخشية مغروسان في بنية البشر[٤] ، قال تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفًا ﴾[٥] .

وعلى هذا تحمل الخشية التي وقعت بعد مشاهدة الملك ، ولا يصح حملها على المعنى الأول بحال ، وقد انتهت بعد نزول مطلع سورة المدثر ، على الرغم من ثقل وطأة الوحي ، وما كان عليه الصلاة والسلام يكابده منه .

هذا ؛ وليس في أي من الخشيتين المذكورتين ما يتناقض مع سلامة الفطرة وكمال الشخصية الإنسانية التي كان عليها سيدنا ونبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يتناقض مع كمال الإيمان ، واليقين ، وعصمة النبوة[٦] ، والله تبارك وتعالى أعلم .

هذه خلاصة ما قاله الأئمة والعلماء في تفسير الخشية ، وليس في واحد منها ما زعمه مؤلف الكتاب المذكور ؛ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يظن في نفسه الجنون ؛ حاشاه صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك .

---

(١) صحيح البخاري ، ك التفسير ، ب ٤٠٥ ، ح ٤٦٤٢ .

(٢) صحيح البخاري ٦/١ ، ك ١ ، ب ١٠ ، ح ٤ .

(٣) صحيح البخاري ، ك التفسير ، ب ٤٤٤ ، ح ٤٦٧١ .

(٤) البدر الساري ٢٧/١ .

(٥) سورة النساء ، آية ٢٧ .

(٦) انظر كتاب : محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، للشيخ محمد الصادق عرجون ٣٧٠/١ – ٣٨٤ ، ط١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بل إن الذين فسروا الخشية بالجنون ؛ لم يقولوا ما ورد في الكتاب المذكور ؛ من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يظن في نفسه الجنون ، حاشاه عليه الصلاة والسلام ، وكل الذي قالوه : إنه صلى الله عليه وآله وسلم خشي على نفسه في بدء الأمر أن يصير أمره إلى الجنون - كما ذكرت آنفاً - ولم يقولوا : إنه صلى الله عليه وآله وسلم ظن في نفسه الجنون ، حتى نزلت : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾[1] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : « والخشية المذكورة اختلف العلماء في المراد بها على اثني عشر قولاً : أولها الجنون ، وأن يكون ما رآه من جنس الكهانة ؛ جاء مصرحًا به في عدة طرق ، وأبطله أبو بكر بن العربي ، وحق له أن يَبْطُل ، لكن حمله الإسماعيلي على أن ذلك حصل له قبل حصول العلم الضروري له ؛ أن الذي جاءه ملك ، وأنه من عند الله تعالى » اهـ.

وإذن ؛ فهؤلاء على الرغم من بطلان قولهم ، قالوا : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خشي أن يصير أمره إلى الجنون ، وهذه الخشية لا تتنافى مع كماله ؛ لأنها لا تكون إلا من الكملة الأطهار ، لكن هذا شيء ، وما ورد في الكتاب المذكور شيء آخر ؛ لما فيه من الافتراء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ بأنه ظن أن ذلك واقع فيه ، وفرق كبير بين أن يخشى الإنسان أن يقع فيه أمر كالجنون ، وبين ظنه أنه واقع به - كما تفيده عبارة الكتاب المذكور - ، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقي يظن في نفسه ذلك عدة سنوات حتى نزل قوله تعالى : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ بعد الجهر بالدعوة ...

ثم إن سياق الآيات الكريمة في السورة يبطل التفسير الذي ورد في الكتاب المذكور ؛ فالله سبحانه يقول : ﴿ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجرًا غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ، فستبصر ويبصرون ، بأيكم المفتون ، إن ربك هو أعلم

(١) الفتح ١/٢٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، فلا تطع المكذبين ، ودوا لو تدهن فيدهنون ... ﴾ الآيات[1] .

فقوله تعالى : ﴿ فستبصر ويبصرون ، بأيكم المفتون ﴾ صريح في الرد على المشركين ؛ الذين اتهموا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ، وفيه الرد على التفسير الذي ورد في الكتاب المذكور .

قال ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣/٢٩) : « فسترى يا محمد ، ويرى مشركو قومك الذين يدعونك مجنونًا ؛ أيكم المفتون » أي المجنون.

٣ - ورد في الكتاب المذكور بعد تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن لك لأجرًا غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ « يعني : دين عظيم » ، ثم يعزى هذا التفسير في حواشي الكتاب لابن جرير الطبري رحمه الله تعالى ، فيقول في حاشية (٤٧٨) ، ص ٣٥٧ ، الجزء الثاني) : « هذا التفسير روى منه قوله : على دين عظيم ابن جرير وغيره » اهـ.

قلت :قال ابن جرير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية الكريمة (١٢/٢٩) : « القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ الآية ، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم : وإنك يا محمد لعلى أدب عظيم ، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به ، وهو الإسلام وشرائعه ، وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل » اهـ.

ثم نقل ابن جرير قول من قال : « إنك على دين عظيم ، وهو الإسلام » ، وأردفه بحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها :كان خلقه القرآن . وبقول عطية : « قال : أي القرآن » . وبقول الضحاك ، قال : « يعني دينه وأمره الذي كان عليه مما أمره الله به ووكله إليه » .

فهذه الأقوال تدل على أن مراد من فسر قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ بدين عظيم ؛ هو ما ورد في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ، بدليل قول ابن جرير رحمه الله تعالى : « وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل » اهـ. ولم يريدوا التفسير الذي ورد في الكتاب المذكور ؛ من تجريد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من هذا الثناء العظيم وصرفه عنه ، بدليل أن مؤلف الكتاب المذكور

(١) سورة القلم ، الآيات ١-٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لم ينقل سوى هذا التفسير من الأقوال التي نقلها ابن جرير رحمه الله تعالى عن أصحابها ، لكن ابن جرير قدم لما لنقله من أقوالهم ؛ بأن المراد منها ما ذكره هو من تفسيرها ، وهو أدب القرآن العظيم .

كما عقب على أقوالهم بحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها : « كان خلقه القرآن » ، بحيث قطع كل طريق يؤدي إلى التفسير الوارد في الكتاب المذكور ، والذي جاء على طريقة من يقرأ قوله تعالى : ﴿ فويل للمصلين ﴾ ، ولا يكمل الآية الكريمة ؛ حيث اقتصر على التفسير الذي أورده !!!

ثم لنفرض جدلاً أن هؤلاء الذين فسروا الخلق بالدين ، ولم يريدوا ما ورد في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ؛ فما الذي دفع مؤلف الكتاب المذكور لأن يقتصر على هذا التفسير ويعرض عن غيره ، لا سيما حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ، الوارد في الأحاديث الصحيحة ، والذي أجمعت عليه الأمة سلفًا وخلفًا ؟؟!!! ألا يثير التفسير الوارد في الكتاب المذكور لهذه الآية الكريمة السابقة ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ ألا يثير الريبة بهذه التفسيرات الباطلة ؟!!

٤ - ثم نأتي لتفسيره لقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ فقال : « يعني كان على أمر قومه أربعين عامًا » .

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية الكريمة : « ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ كقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ الآية » .

ويقول ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية الكريمة : « ووجدك على غير الذين أنت عليه اليوم » ، ونقل عن السدي قوله : « كان على أمر قومه أربعين عامًا » ، وقيل : « عنى بذلك : ووجدك في قوم ضلال فهداك ، ومثل هذا التفسير ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، نقله السيوطي في الدر المنثور (٣٦٣/٦) فقال : « وجدك بين ضالين ، فاستنقذك من ضلالتهم » .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ونعود هنا للسؤال السابق : ما الذي جعل مؤلف الكتاب المذكور يقتصر على تفسير السدي ، مع كون السدي ضعيفًا - كما يقول العلماء - بل إنه لم ينقل حتى ما قيل في توجيه تفسير السدي ؛ لإبعاد ما يفيده تفسيره من إساءة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومما يتنافى مع عصمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عما كان عليه قومه من الشرك ، والربا ، وشرب الخمور ، والزنى ، وفعل الفواحش ، كما هو ثابت في سيرته صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة .

ومن الأمثلة والأدلة على ذلك ؛ ما بوبه أئمة المسلمين وعلماؤهم في عصمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن ذلك ما يلي :

أ - بوب الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في المطالب العالية ، فقال :« باب عصمة الله تبارك وتعالى رسوله محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة » اهـ.

ب - بوب ابن حبان رحمه الله تعالى في صحيحه فقال : « ذكر الخبر المدحض ؛ قول من زعم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان على دين قومه قبل أن يوحى إليه » اهـ.

ج - وبوب أبو نعيم رحمه الله تعالى في دلائله ، فقال : « الفصل الثالث عشر : ذكر ما خصه الله ﷻ من العصمة ، وحماه من التدين بدين الجاهلية ، وحراسته إياه من مكائد الجن والإنس ، واحتيالهم عليه صلى الله عليه وآله وسلم » اهـ.

د - بوب البيهقي رحمه الله تعالى في دلائله ، فقال : « باب ما جاء في حفظ الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعائبها ؛ لما يريد به من كرامته لرسالته حتى بعثه رسولاً » اهـ.

هذه بعض أقوال الأئمة والعلماء في عصمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة .

وما يؤيد أقوالهم هذه حديث شق الصدر عند مسلم وغيره رحمهم الله تعالى ، حين كان صلى الله عليه وآله وسلم مسترضعًا عند ظئره حليمة السعدية رضي الله تعالى عنها في بادية بني سعد بن بكر ، وفي الحديث الشريف : « ... فاستخرج - أي جبريل عليه الصلاة والسلام - من قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك »[1] .

(١) صحيح مسلم ١٤٧/١ ، ك الإيمان ، ب ٧٤ ، ح ٢٦١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

هذا ؛ وقد ذكرت في كتابي (في رحاب السيرة النبوية) دلالة هذا الحديث في عصمته صلى الله عليه وآله وسلم ، ومما جاء في ذلك :

وحظ الشيطان هو : الاستعداد الفطري للانحراف، والاستجابة لغواية الشيطان، الذي يولد مع كل إنسان ؛ ذلك أن كل إنسان وكل به قرين من الملائكة يأمره بالهدى ويزينه له ، وقرين من الجن (الشياطين) يغويه ويأمره بالضلال والفساد ، ويزينه له ، كما ورد في الحديث الشريف عند الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » .

قالوا : وإياك يا رسول الله ؟!

قال : « وإياي ، ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بحق »[1] .

وفي رواية أخرى للدارمي رحمه الله تعالى ، قال : « نعم ؛ وإياي ، ولكن الله أعانني عليه فأسلم »[2] .

ولكل من القرينين حظه في نفس ابن آدم ، وهما الاستعدادان الفطريان للهدى والضلال ، والخير والشر ، اللذان يولدان مع الإنسان ، كما قال تعالى : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ الآية .

فقوله تعالى : ﴿ فألهمها فجورها ﴾ يشير إلى الاستعداد الفطري للشر والفساد والانحراف ، وهو حظ الشيطان الذي انتزع من قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ طفولته المبكرة ، وبذلك عُصم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الشيطان وغوايته منذ طفولته المبكرة ، وأسلم شيطانه ؛ أي ذل واستسلم ، وقيل : أسلم ؛ بمعنى الإسلام الشرعي ، بدليل الرواية الأولى ، وهي : « فلا يأمرني إلا بحق » .

وقوله تعالى : ﴿ وتقواها ﴾ : أي ألهمها تقواها ، وهو الاستعداد الفطري للهدى ، والخير ، وهو حظ الملك ، والذي بقي في قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن ثم ؛ لم يعرف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قارف شيئًا مما كان عليه قومه ؛ من الشرك ، والضلال ، والفساد ، والانحراف ، والفواحش ،

---

(١) المسند ٣٨٥/١ .

(٢) الدارمي ٣٠٦/٢ ، الرقائق .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وأمور الجاهلية ، التي كانت متفشية في قومه ، ومن ثم حين قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » عجب أصحابه رضوان الله تعالى عليهم من هذا ؛ إذ إن هذا الحديث يشمله عليه الصلاة والسلام ، لكنهم لم يروا في حياته قبل البعثة أي أثر لغواية الشيطان ، لذا سألوه ، وبغاية الأدب : وإياك يا رسول الله ؟

فأجابهم ، وكشف لهم عن السر ، وهو أن الله تعالى عصمه من الشيطان ، فقال : « وإياي ، ولكن الله أعانني عليه ؛ فلا يأمرني إلا بحق » .

لكن الذي يبدو من عبارات الكتاب المذكور : أنها تنفي العصمة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوة ، مخالفة ما يفيده ما تقدم من حديث الإمامين مسلم وأحمد رحمهما الله تعالى ، وما قاله أئمة المسلمين وعلماؤهم بعصمته صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوة .

لقد أورد الكتاب المذكور تفسيرات واهية ، وأخبارًا موضوعة ، فأورد في تفسير قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ : « يعني : كان على أمر قومه أربعين عامًا »[1] أي من الشرك والضلال والفساد وارتكاب الفواحش .

وفسر قوله تعالى : ﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ : « يعني : ما كان في جاهليته »[2] ، ولم يقل قبل بعثته صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا يكشف عن مراده من قوله : « كان على أمر قومه أربعين عامًا » ، وهل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل نبوته جاهليًا ؛ يفعل ما يفعله أهل الجاهلية ؟ كما يفيده هذا التفسير المفترى ؟ وهل كانت له صلى الله عليه وآله وسلم جاهلية ؟

هذا ؛ ومما يؤكد هذا الرأي الفاسد الذي ورد في الكتاب المذكور عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما ورد في الجزء الأول منه ص ١٦٢-١٦٣ : « عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلة يهمون به (من النساء) إلا مرتين في الدهر ، كلتاهما يعصمني الله ﷻ منها » اهـ.

---

(١) الجزء الثاني ، ص ٤١ .

(٢) السابق نفسه .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد وضع الكتاب المذكور عبارة : (من النساء) بين قوسين ؛ ليلفت الانتباه إليها ؟!! وعزاه إلى السيوطي في الخصائص وإلى غيره .

وقد رجعت إلى الخصائص ، واستعنت ببعض علماء الحديث الأفاضل الثقات في مراجعة المصادر التي عزي إليها هذا الحديث ، وانتهينا إلى النتيجة التالية : لفظ الحديث الذي ذكره السيوطي رحمه الله تعالى في الخصائص[١] هو لفظ البيهقي في الدلائل[٢] فقط ، وأما لفظة (من النساء) فلم نجدها إلا في رواية البيقهي رحمه الله تعالى ، وقد عزاها للحاكم رحمه الله تعالى ، وهي غير موجودة في المستدرك ؟! فلماذا يوهمنا الكتاب المذكور بأنها موجودة في المصادر التي ذكرها في حاشية (٢٠٨) ص ٣٢٣-٣٢٤ من الجزء الأول منه .

هذا ؛ وقد اقتصر الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في رواية هذا الخبر على رواية البيهقي ، التي وردت فيها لفظة (من النساء) ، ثم قال : « هذا حديث غريب جدًا ، وقد يكون عن علي نفسه ، ويكون قوله في آخره : « حتى أكرمني الله ﷻ بنبوته » مقحمًا . والله أعلم »[٣] ؟

قلت : وهذا تخريج جيد من ابن كثير رحمه الله تعالى ، إلا أنه يَرِد عليه أن عليًا رضي الله تعالى عنه أسلم قبل سن البلوغ ، ولذا فهو بعيد عنه هذا الفعل ، لكن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ الذي عصمه ربه سبحانه قبل النبوة من الشيطان وغوايته أبعد .

واحتمالات وضع هذا الخبر واردة[٤] ، لا سيما أن هذه اللفظة (من النساء) غير واردة إلا في رواية البيهقي ، وهي غير موجودة في المستدرك للحاكم ، وقد عزاه البيهقي للحاكم .

---

(١) الخصائص الكبرى ، للسيوطي ١٤٩/١ ، ط١ ، سنة ١٤٠٥هـ .

(٢) الدلائل ٣٣/٢ ، ط١ ، سنة ١٤٠٥هـ .

(٣) البداية والنهاية ٢٦٧/٢ ، ط ١١ ، سنة ١٤٠٥هـ .

(٤) من علامات الحديث الموضوع في المتن : مخالفة متنه للثابت في دين الله عزوجل ، وحقائق التاريخ ... الخ ، وهذا الخبر مخالف للثابت من عصمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوة – كما قدمت – ، لذا قلت : إن احتمالات وضع هذا الخبر واردة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والسؤال هنا هو : هل عرف مؤلف الكتاب المذكور ما عرفناه من أن هذه اللفظة : (من النساء) غير موجودة إلا في رواية البيهقي ؟ وأنها غير موجودة في المستدرك للحاكم ، وقد عزاها البيهقي للحاكم ؟ وهل اطلع على حكم الحافظ ابن كثير على هذا الحديث بأنه غريب جدًا ؟؟!!!

فإذا قال : لا .

قلنا : ما فائدة ما ذكر في الكتاب المذكور - نحو صفحتين - من المراجع في الجزء الأولى تحت حاشية (٢٠٨) ص ٣٢٣-٣٢٤ .

وإن قال نعم .

قلنا : فأين ما ورد في مقدمة الكتاب المذكور ص ١٨ من الجزء الأول : « على الرغم من المنهج المعروف عند أهل الحديث في التساهل في الروايات التي تتعلق بالمغازي والفضائل ، والرقائق والزهد ، ونحوها ؛ فإنني لم أسر على هذا المنهج ، بل أعامل الروايات في هذا المضمار معاملة الأحكام ؛ فأسلك فيها طريقة أهل العلم في الحكم على روايات الأحكام » اهـ.

وهذا الكلام يفيد أن مؤلف الكتاب المذكور لا يأخذ إلا بالروايات الصحيحة ؛ لأن أهل العلم لا يأخذون في الأحكام (الحلال والحرام) إلا بالروايات الصحية ؟ هنا لم يلتزم منهجه هذا في هذه القضية ولا في غيرها ، بل أخذ بالروايات الضعيفة ، وحتى الموضوعة !!

ثم ؛ ما الغرض من إبراز لفظة (من النساء) مع احتمال وضعها - كما استظهرتُ - ؟هل يراد منه أن يقال للمسلمين الذين يعتقدون بعصمة نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوة : إنكم واهمون ، وإن نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن معصومًا قبل النبوة ، وأنه كانت له جاهلية ، وكما تفيده العبارات المشار إليها كلها ، وكما يفيده ما ورد في الكتاب المذكور في جزئه الأول ص ١٦٢-١٦٣) من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حضر حفلة عرس في مكة المكرمة حين كان صغيرًا يرعى أغنام أهله ... وفيه : « فجئت أدنى دار من دور مكة ، فسمعت الغناء وضرب دفوف ، وغرابيل ، ومزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان تزوج فلانة ، فلهوت بذلك الغناء ، وبذلك الصوت ، حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا مس الشمس » .

ثم عاد صلى الله عليه وآله وسلم مرة أخرى ، فقال : « فخرجت ، فسمعت مثل ذلك ، فقيل لي مثل ما قيل لي ، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا مس الشمس »[1] .

والسؤال هنا : ما الغرض من ذكر هذه العبارة « فلهوت بما سمعت » ، وقد أعرض عن ذكرها البيهقي ، وابن كثير ، والسيوطي ، والشامي ، وإعراضهم عن ذكرها في رواياتهم للقصة يدل على عدم صحتها عندهم ، لكن الكتاب المذكور يوردها ويصححها ، وهي غير صحيحة ؟؟!!، ولا أدري ما الغرض من ذلك ؟!! هل يراد منه التأكيد على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن معصومًا قبل النبوة ؟! وأنه كان في جاهلية ، كما قال : « في جاهليته » ؟! وأنه لم يكن على خلق عظيم ، وأن الثناء في قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ليس موجهًا إليه ، ولا إلى خلقه صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنما هو موجه إلى دينه ؛ إلى الإسلام العظيم ؟!

ولذا ؛ فإني أحذر من هذا الكتاب ، المسمى بـ (صحيح السيرة النبوية والسيرة الذهبية) وليس هو بصحيح السيرة النبوية ، وليس بالسيرة الذهبية ، وأحذر من قراءته ؛ لما فيه من طامات ؛ من الجرأة على شخص سيدنا ونبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولما فيه من أخبار غير صحيحة ، بل وموضوعة ، ولما فيه من خلط في ترتيب وقائع السيرة النبوية ، علمًا بأني لم أتناول بالتعقيب إلا قضية واحدة - كما تقدم - ، وإلا فالكتاب كله يحتاج إلى نقد علمي ، يكشف عن أخطائه وطاماته ، ومخالفاته للصحيح من السيرة النبوية ، وعما اشتمل عليه من أخطاء علمية فيما أورده من وقائع السيرة النبوية .

وأود أن أقول : لولا أن هذا الكتاب قُدِّم للقراء على أنه صحيح السيرة النبوية ، وأنه السيرة الذهبية ، ولولا انخداع القراء به ، وظنهم أن ما اشتمل عليه هو فعلاً صحيح السيرة النبوية ، ولولا قول د. عبد الله الرحيلي بأن أهل الحديث هم أولى الناس بكتابة السيرة - وهذا نموذج منها - ما كتبت هذه

(١)

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

التعقيبات عليه ، ولا كلفت نفسي أن أكتب عنه ولو صفحة واحدة ، ولكنت اعتبرته واحدًا من الكتب السيئة التي كتبت عن السيرة النبوية .

وتعقيب أخير في هذه التعقيبات ، وهو : إن إكثار الكتاب المذكور من ذكر الروايات في الحواشي ، وذكر سندها ، وحُكمه بالصحة أو الضعف ؛ لا معنى له عندي سوى التظاهر بالعلم ؛ وذلك لأن مكانها هو الكتب المتخصصة في الحديث الشريف ، والمتداولة بين علمائه الذين يدركون ما فيها من صواب أو خطأ ، ومن نقل صحيح وأمين ، أو غير ذلك .

وقد رأينا في مسألة واحدة ، أن لفظة (من النساء) لم ترد في كل المصادر التي ذكرت في الكتاب المذكور ، في حاشية (٢٠٨) من الجزء الأول من كتابه المذكور ، والتي أوهم القراء أنها موجودة فيها كلها ، في الوقت الذي لم ترد فيه إلا عند البيهقي ، وأنها غير موجودة في المستدرك للحاكم ، وقد عزاها البيهقي للحاكم ، كما أن الكتاب المذكور عزاها له ، وأن الحافظ ابن كثير حكم على الحديث بأنه غريب جدًا - كما تقدم - ، بينما صححها الكتاب المذكور ، وهذا مثل واحد على عدم صحة ما اشتمل عليه الكتاب من تخريجات ، وعدم الأمانة فيها .

وهذا يجعلنا لا نثق بتخريجات الكتاب للأحاديث ، كما أننا لا نثق بنقله عن العلماء ، وقد رأينا تحريفه لكلام الحافظ ابن حجر ؛ حين زعم أنه جزم بأن أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها هي إحدى المرأتين التي قالت : (ما أرى صاحبك إلا قد قلاك) ، وابن حجر لم يجزم ، وإنما استظهر ذلك .

وبعد ؛ هذه نماذج من كتب أهل الحديث من المتخصصين فيه ، أو ممن له عناية به ، وقد سماها أصحابها بصحيح السيرة النبوية ، أو السيرة الصحيحة ، وما فيها لا يصدق تسمياتها ، وأن تحقيق السيرة والشمائل النبوية لا يقدر عليه فرد واحد ، ولا بد من مجموعة من الباحثين ، بعضهم متخصص في الحديث الشريف ، وبعضهم متخصص بالسيرة النبوية ، يعملون كفريق واحد متعاون ، بالإضافة إلى ضرورة معرفة بعضهم معرفة جيدة بعلوم القرآن الكريم ؛ لتعلق بعض وقائعها بعلوم القرآن الكريم ؛ كالناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول وسواها ،

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كما لا بد من معرفة بعضهم بتاريخ الأمم قبل الإسلام ؛ لا سيما تاريخ العرب ، وذلك لتعلق أحداثها بالتاريخ الجاهلي ، وتصورات الناس ومفاهيمهم في الجاهلية ، كما يحتاج الأمر لأن يكون لدى بعضهم تمكن راسخ في الفكر الإسلامي الأصيل ، المنبثق من الكتاب والسنة ، والذي كان عليه السلف الصالح لهذه الأمة ، وتشكل السيرة والشمائل النبوية الترجمة العملية له ؛ ليتمكن الكاتب في السيرة والشمائل النبوية من الفهم السليم لأحداثهما ، وليكون تفسيره لها تفسيرًا إسلاميًا منطبقًا على الواقع ، ومعبرًا تعبيرًا صادقًا عن دوافع وأهداف القوم الذين قاموا بالحدث التاريخي ، وكانوا أشخاصه ، وليصل الحاضر بالماضي ؛ لأخذ العبرة والدروس المفيدة ، وليتمكن القارئ من الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم ، ولئلا يأتي عرض السيرة والشمائل سردًا تاريخيًا بحتًا ، لا سيما إذا جاءت على طريقة الإكثار من سرد الروايات المتعددة للواقعة الواحدة ؛ بحيث يضيع القارئ فيها ، ولا يخرج بتصور صحيح وواضح عما يقرأ ، ومن ثم فلا يشعر بأن صلة ما بينه وبين ما يقرأ من أحداث السيرة والشمائل النبوية .

وأيضًا ؛ ليتمكن من رد شبهات المستشرقين وتلامذتهم ، ومن هم على شاكلتهم ، وليأتي الرد منبثقًا من نظرة إسلامية أصيلة .

هذه رؤيتي للشروط التي يجب أن تتوفر في كتابة السيرة والشمائل النبوية كتابة صحيحة محققة ، تسد حاجة المسلمين اليوم إليها .

وقد تكونت لي هذه الرؤية من خلال ممارستي لتدريس السيرة النبوية لأكثر من أربعين سنة في الجامعات وغيرها ، ومن خلال قراءتي الكثير مما كتب في السيرة والشمائل النبوية قديمًا وحديثًا .

وبناء على هذه الخبرة والممارسة قلت : لا بد لكتابة السيرة والشمائل النبوية الكتابة المرجوة من متخصصين في الحديث الشريف والسيرة النبوية ، بالإضافة إلى ما ألمحت إليه من معارف أخرى ، يجب أن تتوفر في المؤلفين في السيرة النبوية ، الذين يعملون كفريق واحد متعاون .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما التخصص في الحديث الشريف وحده ، كما ذهب إليه د. عبد الله الرحيلي غير كاف ، ولا يفي بالغرض ، وهذا إذا كان وفق الصحيح الراجح من منهج المحدثين المذكور في التقديم ، أما على ما شذ من منهجهم ، والذي تبناه د. عبد الله فلا يصلح بحال من الأحوال ، وسيؤدي إلى إلغاء الكثير من وقائع السيرة ؛ بحجة أن رواياتها ضعيفة . وما شذ من منهج المحدثين المشار إليه ، لا يأخذ بالرواية الضعيفة مطلقاً ، وهذا يعني ترك فجوات كثيرة وكبيرة في السيرة النبوية ، بل ويؤدي إلى مسخ السيرة النبوية بدلاً من تحقيقها .

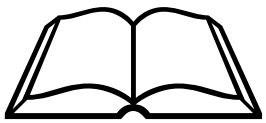

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة